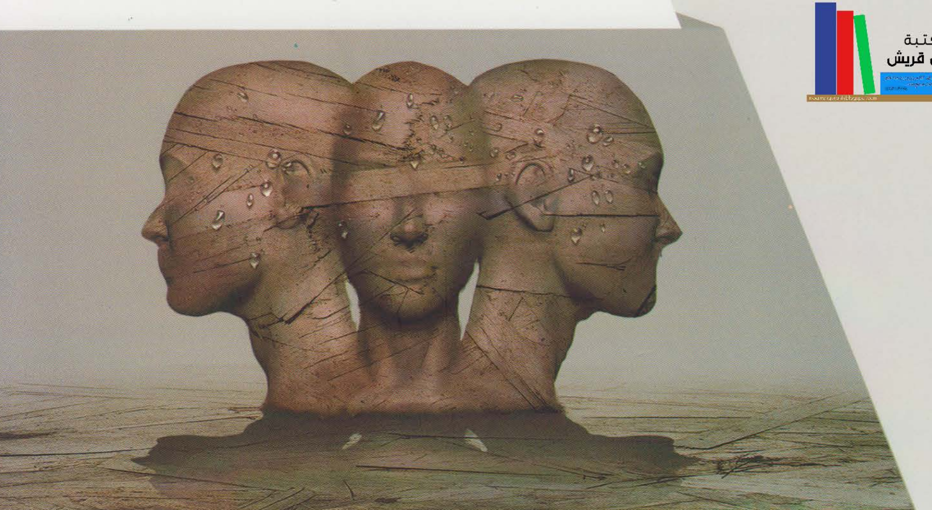


د. منصور عبد الجليل القطري



فضل السكوت ولزوم البيوت

أوراق جريئة لتفعيل المجتمع



فضل السكوت
ولزوم البيوت

(أوراق جريئة لتفعيل المجتمع)

د. منصور عبد الجليل القطري

فضل السكوت ولزوم البيوت

(أوراق جريئة لتفعيل المجتمع)



اسم الكتاب: فضل السكوت ولزوم البيوت.
(أوراق جريئة لتفعيل المجتمع).

اسم المؤلف: د. منصور عبد الجليل القطري.

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-567-06-4

الناشر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.

سنة الطباعة: 2016.



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سورية - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

aklpublishing@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

سورة فصلت .الآية 34

إهداء

إلى حبيبة قلبي وقرة عيني

زينب منصور القطري

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فبين دفتي هذا الكتاب مقالات نشر معظمها في الصحافة ضمن محاولة جادة لكتابة استثنائية بعيداً عن الانخراط في لعبة السباحة مع التيار "عقلية القطيع". وهي تأتي في الوقت نفسه متجاوزة لتلك الروح الانهزامية ولغة التيئيس التي يمارسها بعض "المثقفين".

والكتاب بدءاً من عنوانه الذي جاء متهكماً محتجاً على ظاهرة انسحاب الإنسان العربي من ساحة الاهتمام بالشأن العام، ذلك الإنسان الذي لا ينبغي أن يكون الصمت والانعزال ديدنه وهو يقف على أرض صلبة من القيم المحرضة على الفعل والحركة ويتكئ على مرجعية ثقافية تقتضي منه سلوكاً مغايراً للهامشية، وتدفعه للخروج من دائرة اللاموقف إلى دائرة المسؤولية والتصدي الإيجابي للسلبيات وإصلاح وتقويم كل معوج في المجتمع.

لقد حاولنا أن نستلهم ونرصد مخزون التراث الأخلاقي الذي يحصن الإنسان العربي ضد حالة الانكفاء على الذات بحشد العديد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والتاريخ الإنساني والتجارب العالمية التي تشكل

في تقديرنا لقاحاً معنوياً ضد هذه الحال مما نأمل أن يصل بهذا الإنسـان لـيس إلى تجنب مواقف التفـرج والانسـحاب بـل واسـتهجانها أيضـاً مـن خـلال الحركة والعطاء (المؤمن كالسراج أينما تضعه يضيء).

إنها محاولة لاستثارة حاجة ماسة لقـارئ يعـي دوره مـؤثراً في محيطـه وأسرته ومجتمعه أولاً ثم منتجاً في الفعل الإنساني عـلى اتّسـاع مـداه وتعـدد أبعاده. فهل تنجح هذه المحاولة؟ وهل يحكم القارئ العزيز لنا أم علينا؟

أطفال المناديل
عند إشارات المرور

كل منا لديه رصيده من المشاعر تجاه ما يشاهد، ومع الحرارة الشديدة في وطننا العربي الكبير يمتزج العرق بالتراب بالتلوث بضيق التنفس لنقص الأكسجين، لكننا لسنا مصابين بـ (أنيميا المحبة)، بل إننا نتميز بتأجج المشاعر ودفء العواطف رغم الزحام، وغياب التخطيط للقضاء على الفقر، والفوضى المرورية، وحقوق المشاة (ملح الأرض)!

هكذا نعيش على أرض الله والوطن صابرين على سيناريو اعتقال المشاعر في الطرقات وعند إشارات المرور وسط العمارات الشاهقة (الغابات الإسمنتية) حيث تصاب جحافل السيارات بعدم القدرة على الحركة، فكم عملية إجهاض تتعرض لها سيدات حوامل؟ وكم موعد لرحلة طيران تضيع على المسافرين؟ وكم مريض يموت وهو في حاجة ماسة لجراحة عاجلة؟ ...إلخ.

يبدو أن الإحساس بطفلة صغيرة حافية الأقدام تبيع مناديل الورق إلى جانب إشارة المرور يحتاج إلى نقاش علمي حول ظاهرة "الفقر"!! ويحتاج إلى نخب ثقافية تلتقي في المراكز البحثية! قد نتعرض للنقد ونمنع

من أن نكون مرهفي الإحساس إذا قمنا بدفع جزء من المال اليسير إلى ذلك الطفل أو تلك الطفلة وسوف نتهم في النهاية بتشجيع ظاهرة "التسول"!

تلك المساهمات اليسيرة لعلها تمثل نوعاً من الاحتجاج المبطن على بيروقراطية المؤسسات الرسمية في وطننا الذي يمتد من الخليج إلى المحيط! هذا الاحتجاج يختزن صوتاً قادماً من عمق حضارتنا، إنه صدى خطبة أمير المؤمنين الإمام علي حين يقول: "والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أدخل على قلب فقير سروراً إلا خلق الله له من هذا السرور لطفاً، فإن نزلت به نائبة جرى إليها لطف الله كالماء في انحداره حتى يطردها عنه".

إن الشرطي في بريطانيا لا يخجل أن يمنع التسول لأن كل عاطل يتقاضى (35) جنيهاً إسترلينياً أسبوعياً؛ وأهل الخير والتجار في لندن أبدعوا في فتح مطاعم لسد الجوع. نعم تلك المطاعم لا تقدم الآيس كريم لكنها تقدم العدس والخبز وكأساً من الشاي، إنها أفعال تجسد روح الحديث النبوي الشريف: "في كل كبد رطبة أجر!".

القلم عاشق لحرية الإنسان، وسوف يسترسل كما تستدعيه الذاكرة ولم يشأ أن يترك الألم أو أن يبتعد عن ساحة التعب؛ وطالما أن النظام التعليمي في وطننا العربي لا يزال يخرج لنا أطفالاً موظفين لدى "الرصيف" سوف نستمر في تقديم ما تجود به النفس لأطفال المناديل. بل وقد نعجب من الأطفال الذين لا يجدون قوتهم، كيف لا يخرجون في الناس شاهرين مناديلهم؟

قالت العرب: "سائلان يصعب جفافهما بسهولة، دموع المظلوم ولعاب الجائع" هنا بالضبط تتعانق الكلمات والمشاعر فلا أحد يجرؤ على

الاقتراب من هذه الساحة؛ لأنها تتصل بالداخل المقدس ومن حقنا أن نرنو إلى الأفق البعيد، إلى رصيدنا الحضاري، إلى تجارب الشعوب ودروس التاريخ، إلى ذلك الحلم بـ(مدينة بلا فقراء)، نعم الفقر موجود في كل أنحاء العالم، لكن ليس كل الفقراء يمثلون ويتظاهرون بالفقر، حتى لو اختار البعض ارتداء أقنعة الإعلام التي تطمس وجه الحقيقة وتشكل في وعي الناس صورة مزورة تفيد أن (الفقر وهم)! إن الشيء الأسوأ من الرأسمالية هو أن نعيش نموذجاً ممسوخاً من الرأسمالية!

عندما تتسع رقعة التسول وتصبح صفة ملازمة للضوء الأحمر المنبعث من الإشارات المرورية، وعندما يمنع الناس في وطننا العربي من تشكيل الهيئات والمؤسسات النقابية والحقوقية، عندها يكون الاحتماء بإحياء قيم النخوة العربية ونظام الفزعة وإطلاق المبادرات الفردية ذات الحس الإنساني مشروعاً لكي يتوازى ذلك الاحتماء مع هذا المنع، إنها دعوة للبداوة ولكنها من طراز جديد؛ حتى تنقدح في ذاكرتنا مواقف الشهامة المتسربلة بوشاح (عروة بن الورد). إن (التربية العاطفية) مشروع مناهض في عصر ثقافة الاستهلاك والتبعية وانكماش روح الدعم الاجتماعي، إنه مشروع يعزز أخلاقاً حقيقية، ولقد صدق غاندي محرر الهند حين قال: "الأخلاق الحقيقية هي تلك التصرفات التي تتم بين المرء ونفسه!".

نعتذر هنا لانحراف القلم إلى قضية عاطفية تتصل بتحريك الإنسان الذي يقبع داخل المواطن العادي قبل المثقف والفنان، إنها العواطف الإيجابية الدالة على عافية الشعوب ومناعتها الروحية. لقد كان بالإمكان الحديث عن دور هيئة مكافحة التسول وعن دور الأثرياء والتجار، وكذلك

وزارات العمل والشؤون الاجتماعية في الوطن العـــربي، لكـن (مشاعرنـــا) هذه لا تستطيع أي قوة في العالم أن تمنعها مـن أن تعـبر عـن ذاتهـا حتـى لـو قمعت بقوات مقاومة الشغب أو بطائرات الأباتشـــي، فهـي هنـاك تتـأجج وتحتمي بروح البسطاء من المواطنين قـاطرة النهضـة والآمـال، ومـن منـا لا يعيش بلا حلم أو أمل؟ ويمكن للقـــارئ أن يـردد معنـا مـا قالـــه الأديـب العــالمي في حـق الأطفـال الفقـراء: "رأيـت في المنعطـف بوضـوح وجـلاء طفلاً... نسيـه الصباح كان يمشـي مع أمه عبر نور الشمس... لقد أحرقـت دموعه وجنتي... وتحرك قلبه في قلبي...".

الأكثرية التافهة والأقلية الفاعلة

كان عالم الاقتصاد الإيطالي الشهير (فلفريدو باريتو) في عام 1897م يدرس توزيع الإنتاج والثروات داخل المجتمع فوجد أن حوالي 20%من المصانع تنتج 80%من إجمالي الإنتاج كما أن 20%من الأثرياء يحصلون على 80% من ثروة المجتمع! وقد كانت دهشة (باريتو) عظيمة عندما توصل إلى نتائج متشابهة عند دراسته مجتمعات أخرى! قام الرجل بعد ذلك بدراسة ظواهر أخرى غير الإنتاج والتوزيع، فوجد أن أرقام (20/ 80) تفرض وجودها وتتكرر في مناحي مختلفة في الحياة، فأصبح ذلك الاكتشاف ينسب إليه عبر عدة مسميات (منحنى باريتو) (قانون الكثرة التافهة والقلة الهامة) (قاعدة الثمانين والعشرين) ...إلخ.

في الحياة العملية:

بذكاء متميز قام (ريتشارد كوخ) بتحريك قاعدة عالم الاقتصاد (باريتو) في مجالات مختلفة في الحياة، وذلك عبر كتابة (قاعدة 20/ 80) حيث بدأ بالعمل؛ فالإنسان داخل شركته يمكنه ملاحظة أن 80% من الأرباح تأتي من 20% من المنتجات، وأن 80% من الإيرادات تأتي من 20% من العملاء كما أن 20% من الموظفين يؤدون 80% من العمل.

على صعيد المجتمع 20% من المجرمين يرتكبون 80% من الجرائم، وأن 80% من حالات الطلاق تصدر عن 20% من الرجال، بمعنى أن هناك رجال يطلقون أكثر من (5) مرات في حياتهم أو ربما أكثر! أما السيدات في المنزل فيستخدمن 20% من الملابس المتراكمة في الدولاب بينما هناك80% من الملابس للفرجة والتكديس، كما تستخدم السيدات 20% من الأواني والأجهزة في المنزل وتظل 80% للديكور الاجتماعي أي معطلة طوال العام! وفي المكتَب يتم استخدام 20% من الأوراق والملفات ويظل 80% متراكماً على الطاولة بلا قرار!

الصفوة المنتجة:

نرغب في هذه السطور أن نشير أو أن نقترب تدريجياً من إشكالية (الكثرة)؛ خصوصاً وأن القرآن الكريم والأحاديث النبوية قد أشارت إلى الظاهرة (الغثائية) التي هيّأتنا لها بعض الدراسات المعاصرة. وتواصلاً مع عنوان الموضوع طالعنا أيضاً ما أشار إليه (سايمنتن **Simanton**) في كتابه (العبقرية والإبداع والقيادة) حول الدراسة التي تمت على مئتين من المبدعين قاموا بعدد من الأعمال، وتم اختيارهم بشكل عشوائي من كل مجال، وكانت الدراسة تخص توزيع الإنتاجية في سبعة مجالات هي: علم الشيخوخة، علم الجيولوجيا، وشلل الأطفال والموسيقى الأمريكية غير الدينية وعلم الكيمياء والكتب الموجودة في مكتبة الكونجرس والبحوث في ميدان علم اللغة.

كشفت الدراسة فيما يتعلق بالمجالات الستة (غير الموسيقى) أن التفاوت في الإنتاجية كان بارزاً؛ فعلى الصعيد المعرفي وبالتحديد في مجال علم

اللغة كان أغزر 10% من الباحثين في إنتاجهم مسؤولين عن 34% من كل البحوث المنشورة، وكان الباحث الذي يقف على قمة هؤلاء الباحثين مسؤولاً بمفرده عن 5% من العدد الكلي للبحوث، وقدم 71% من المساهمين إسهاماً واحداً فقط لكل منهم! وساهم 10% من العاملين المبدعين عبر كل المجالات السبعة بحوالي 5% تقريباً من كل الأعمال المنتجة، وكان أغزر المبدعين إنتاجاً مسؤولاً وحده عن 9% من الأعمال المنتجة في كل المجالات، أما على صعيد الموسيقى فتشير الدراسة إلى أن 64%من مجمل الأعمال قد أنتجها 10% ممن كانوا أكثر إنتاجية. كما أظهرت دراسة قام بها (دينس) أنه قد نشر 10% من علماء النفس حوالي 40% من كل البحوث النفسية المنشورة، بينما ساهم 50% من الأقل إنتاجاً بـ 15% أو أقل من الأبحاث المنشورة، وهكذا فإن 10% من الصفوة المنتجة قد أنتجت ما هو أكثر من مثلي ما أنتجه 50% من مجموعة علماء النفس الأقل إبداعاً أو ثلاثة أمثاله! وإذا سمحنا لأنفسنا بتطبيق تلك القاعدة على مجتمعاتنا نقول: إنه لا تزال هناك صفوة خيّرة تقود الأنشطة الاجتماعية والتطوعية والخيرية في المجتمع نيابة عن (الأكثرية) وكأن الرجل منهم بألف فارس! وإن إبراهيم كان أمة قانتاً لله ولم يكن من المشركين.

الظاهرة الغثائية:

يعرف العلامة (ابن منظور) في موسوعته الرائعة (لسان العرب) الغثاء بأنه ما يحمله السيل من القش، وهو أيضاً الزبد والقذر، والغثاء هو الهالك البالي من ورق الشجر الذي إذا خرج رأيته مخالطاً زبده، وفي حديث الحسن: هذا الغثاء الذي كنا نحدث عنه يريد أراذل الناس وسقطهم.

وفي الحديث عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" قيل: يا رسول الله فمن قلة نحن يومئذ؟ قال: "لا بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن" فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت".

إذاً الغثاء لا وزن ولا قيمة له رغم كثرته؛ مما يجعله يطفو على السطح، فكذلك الشأن بالنسبة للأمم والشعوب لا قيمة لعددها وكثرتها إذا كانت على هامش الفعل الحضاري، وإذا كان الغثاء ليس له اتجاه معين وإنما تتقاذفه الأمواج في كل اتجاه، فكذلك الأمة تصبح مسيرة تتقاذفها التيارات المتصارعة، الغثاء يتميز أيضاً بأنه يجمع بين أنواع غير متجانسة ولا متحدة من أوراق وأعواد وحطام، وكذلك الشأن بالنسبة للأمة التي تقحم أهلها وناسها في اعتراك جانبي وتكون غير متجانسة وموزعة أشتاتاً.

القرآن الكريم قبل ذلك كله أشار إلى (الكثرة والقلة) حين قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال عز وجل على لسان أعدائه: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فرد الله عليهم: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم يشعرهم بأن الكثرة التي يتفاخرون بها لا خير فيها ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾

وفي قبال ذم الكثرة غالباً يمتدح الله تعالى (القليل) الذين هم أجدى نفعاً ولأن أتباع الحق هم (القليل) لذا كانت الأكثرية أسيرة الهوى يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ وبعد أن دعا نوح قومه إلى الإيمان ألف عام إلا خمسين قال الله عنه: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾!!

ختاماً نقول: إننا قد وجدنا أن نهج الدراسات المقارنة مع تجارب (الآخر) صديقاً كان أم عدواً يمكن أن يقدم استبصاراً ويلقي إضاءات على أية ظاهرة، ونضع بين يدي القارئ وقفة رقمية تقدمها بشكل متكرر قناة (المنار) الفضائية اللبنانية وهي مقارنة تسليحية بين الجانب العربي والإسرائيلي، فالدبابات العربية تقارب (220) ألف دبابة فيما يمتلك العدو منها 5 آلاف فقط، يمتلك العرب (4) آلاف طائرة مقاتلة مقابل (600) يمتلكها العدو، ينفق العرب على عمليات التسلح ما يفوق (60) مليار دولار في حين يبلغ الإنفاق العسكري الإسرائيلي (6) مليارات ويصل المجموع العددي للجيوش العربية إلى (2.5) مليون جندي مقابل (200) ألف جندي صهيوني!!

لعل الاحتماء بالصمت هو خير جواب وأفضل تعليق على الأرقام السابقة، خصوصاً وأن هناك أصوات لا تزال تراهن على (الكثرة) وبأوداج منفوخة تهدد بزيادة عدد السكان (القنبلة السكانية)!! وقد كان صمت رئيس الوزراء الهندي (شاستري) متوافقاً ومعززاً لمضمون هذه السطور، فقد دعي ذات مرة إلى إلقاء خطاب في حفل (لتحديد النسل)، فوقف أمام

الميكرفون صامتاً لمدة دقيقة واحدة ثم جلس دون أن يتفوه بكلمة واحدة ثـم خرج وسط دهشة الحاضرين وعنـدما حـاصره الصـحفيون بأسـئلتهم عـن تصرفه ذاك أجابهم قائـلاً: كوني والـــداً لثمانيـة مـن الأبنـاء (الكثـرة) أجـد نفســي غير مؤهل للكـلام في هــذه المناسـبة، لـو كـان وزيـراً عربيـاً لسـمع الجمهور بالتأكيد خطبة عصماء عرمرمية!! وصدق غانـدي عنـدما قـال: إن الأخلاق الحقيقية هي تلك التصرفات التي تتم بين الإنسان وذاته.

التابو في توظيف الفيلم السينمائي

على الرغم من اعتبار الفن بأشكاله المتنوعة -بما في ذلك السينما- يمثل لغة العصر، بل والمؤثر الأكبر في حياة البشر وأنماط تفكيرهم وعاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم؛ فهو لا يزال ضئيل الحضور في الخطاب (الديني التقليدي) وهو بذلك ربما تأثر بالسمعة السيئة للفن في بعض المرويات وكتب التراث؛ حتى أننا لا نكاد نرى دوراً إيجابياً للفن في تعبيرات هذا الخطاب وبهذا التجاهل حُرِمَ ذلك الخطاب نفسه من وسيلة سحرية للتواصل والتفاعل مع المجتمع بأدوات عصره.

والفن المرئي في كثير من الأحيان يمثل أكبر وسيلة (أيديولوجية) مرت في التاريخ، بل واجتمعت عليها سلطات العالم كلّ بطريقته ووفق إمكاناته وإبداعاته في الهيمنة، فهناك سلطة المال وسلطة الدولة وسلطة الدين والجنس ...إلخ، وهذا كله (عدا حالات استثنائية) يتم استخدامه لصنع عالم تحكمه رغبة السلطة التي تقف وراء الكاميرا.

سطوة الصورة:

تختزن روح العصر مجموعة من السمات، وتأتي السينما في مقدمتها باعتبار قدرتها على توصيل الأفكار بطريقة سهلة وسريعة أكثر من الكتب

وباقي الوسائل المتاحة؛ خاصة بعد أن أعلن علماء تكنولوجيا التعليم أن الصورة الواحدة تعادل أكثر من عشرة آلاف كلمة!! لذا برز ذلك التنافس المحموم في توظيف (المرئي) الذي لم يعد حكراً على دولة بعينها، بل إن جميع المذاهب الفكرية استغلت بذكاء وحنكة كل ألوان الثقافة والفنون ووظفتها كأدوات للدعاية إلى أيديولوجياتها ونماذجها الفكرية، ومعلوم أنه نادراً ما يسلم رواد المسرحيات والسينما أو قراء القصة القصيرة والرواية والشعر من التأثير، ناهيك عن ذلك التطور الرهيب في تقنية التلفزيون والأفلام في المرحلة الراهنة.

تاريخياً - وبالتحديد أيام الحرب الباردة بين السوفييت وأمريكا- كان هناك توجه للتمدد والانتشار على مستوى الحركة الماركسية عبر (المرئي)، وقد طالعنا ما يعزز حديثنا في كتاب رئيس البوسنة والهرسك علي عزت بيجوفيتش (الإسلام والغرب) والذي تحدث فيه تحت باب الفن والدين عن رؤية الزعيم الروسي (لينين) حين قال: أي لينين (إن الفيلم هو أحد أنواع الفنون ولكنه أقل أنواع الفن فنية، فإذا كان على الفن أن يخدم شيئاً أو شخصاً فليكن أيديولوجية أو حكومة فإن الفيلم أنسب فن يمكن اللجوء إليه).

أزمة الحرية في صناعة السينما:

تعودنا أن تطل علينا الدراما العربية كل عام مشحونة بالسيوف والخيول والفحولة في تماهٍ مع الماضي؛ إما لتعويض المفقود أو للقفز على الحاضر كما هو الحال في الفوارس والكواسر ...إلخ. لكن (الطريق إلى

كابول) مثلاً كان فيه جرأة الاقتراب من الواقع وإن لم تكتمل بسبب عملية إيقاف عرضه؛ حتى أن المشاهد لم يتمكن من معرفة مدى موضوعية وحيادية العرض! والإيقاف هو مؤشر أو انعكاس reflection على (خنق الحريات وتكميم الأفواه) من قبل الدول والقوى السياسية في وطننا العربي!! فالإعلام المرئي - والسينما كفن تحديداً - تختلف عن غيرها من أنماط الفنون الإبداعية في أنها تحتاج إلى توفير مناخ سياسي وحرية فكرية في كتابة النصوص، وكذلك تحتاج إلى قدرة مالية تقنية وكأن لها جناحي معادلة (متعة الإبداع وهدفية النص) ففي السينما شيء من حضور المتعة البصرية والسمعية وثمة فائدة فكرية وثقافية ومعرفية تتمازج فيما بينها لتقدم (النص الإبداعي) بأبهى صوره.

صحيح أن مختلف فروع الفن والأدب من موسيقى وشعر وقصة ورواية وفن تشكيلي قد سبقت جميعها السينما، إلا إن السينما استمزجت كل ذلك، فهي حافلة بالموسيقى والكلمة والشعر والقصة والرواية، ويشترك فيها ويقدمها مبدعون (مخرج - مؤلف - ممثل - مصور ...إلخ) فيتألق (النص الإبداعي المكتوب) في صورة حميمية راعشة مليئة بنبض وإيقاع الحرية.

في كتاب صدر عن جمعية الشجرة لإحياء الذاكرة والتراث الفلسفي 2001م علق (محمد ملص) الروائي والسينمائي السوري المعروف على كلمة الإمام علي: "القلب مصحف البصر" قائلاً: "أنا أشعر بأن هذا القول يفسر طبيعة فهمي ومقاربتي للسينما كأداة تعبير... ولا أشعر

بالحرج -أبداً- من الادعاء بأن الإمام علي في قوله هذا كان أول سينمائي في الإسلام".. ويضيف أيضاً: "إن القول بأن السينما أداة سمعية وبصرية بالنسبة لي هو تحجيم لها؛ فهي لا تخاطب العين أو الأذن فقط بل هي شحنة كهربائية تكهرب كل الحواس التي يملكها الإنسان من أجل الوصول إلى وجدانه".

إذاً: السينما مركب جمالي اقتصادي فكري، بمعنى أنها عملية متداخلة تفرض طابعاً مؤسسياً في العمل وليس نشاطاً فردياً؛ رغم أن الفيلم ينسب في النهاية إلى شخص مبدع، هذه الطبيعة المؤسسية تفرض على السينما أن يكون بقاؤها واستمرارها معتمداً على دورة (رأس المال)، وهي بذلك تخضع لآليات السوق من حيث التوزيع والعرض، وجل هذه الآليات يحددها ويوجهها المناخ السياسي السائد، وهنا يقفز سؤال مشروع: إذا كانت السينما بهذه الأهمية والخطورة فهل هي فن للطبقة المثقفة والنخبة أم هي فن شعبي وجماهيري؟

بين الهيمنة والتسلية:

ظهرت السينما في بدايتها باعتبارها فناً شعبياً احتقرته الطبقة المثقفة واعتبرته أداة لتسلية (الرعاع)، استلهمنا هذه المفردة من كلمة أطلقها الإمام علي: "الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع ينعقون مع كل ناعق". لكن الساسة وأصحاب الأيديولوجيات أدركوا بعد ذلك أن السينما من أكثر الفنون اقتراباً من الفن الشعبي وتستطيع أن تخاطب حتى أكثر الجماهير أمية، بل إن بعض الدول توظف

الإعلام تحت شعار خفي (حافظوا على أمية هذا الشعب) وعليه فهي البديل التكنولوجي لكافة أشكال الفرجة الشعبية؛ فقامت الدول والقوى السياسية بتوظيف الفيلم السينمائي لنشر أفكارها وأيديولوجياتها من خلال الارتكاز على الميول النفسية والأحكام الأخلاقية لدى الطبقة الشعبية ودمجها في هيكل أيديولوجي يقوم على تكبيل العقول فتكون أداة للقمع النفسي والأيديولوجي. ولا يخفى على أحد الإمكانات التقنية للأفلام الأمريكية وقدرتها في الدعاية للنموذج الأمريكي عبر أفلام هوليوود وترويجه للعالم.

الاندهاش الذي نرغب أن نختم به حديثنا: لماذا تعثرت مسيرة الإبداع في وطننا العربي لأكثر من ربع قرن؟ ونعني بهذا فيلم (الرسالة) للمخرج المعروف (مصطفى العقاد) ذلك الفيلم المميز فنياً وفكرياً، والذي لا تزال بعض الدول العربية والإسلامية تمنع عرضه؛ هذا على فرضية أن هناك صالات عرض سينمائية، وكأنه جاء في زمن مبكر ليغلق نافذة نطل بها على العالم ونتحاور معه! ومتى نفك الاشتباك بين القضايا الوطنية والدينية النبيلة وبين توظيف الإبداع لخدمة الأغراض السياسية أحادية الاتجاه؟ كما حدث في فيلم (عمر المختار) الذي ارتبط بالطرف الليبي المنتج مما أضفى على الفيلم طابعاً دعائياً، وكما حصل أيضاً لفيلم (تاريخي) عربي هو (القادسية) لصلاح أبو سيف الذي أنتجه صدام حسين، ليس كإنتاج فني تاريخي بل كسلاح دعائي، وهل سيبقى الخطاب الديني التقليدي حجر عثرة في وجه الفن السابع؟ وهل ستعترف الحكومات العربية بالسينما كفن بحيث لا تقتصر علاقتها بها على مراقبتها كخطر على المجتمع؟ وهل ستبقى

النخبة المثقفة والقوى الاقتصادية الوطنية مهمشة في خلق سينما جادة بحيث تخفف من جبروت الرأسمال النفطي؟ أسئلة لا يملك المواطن العربي إجابة عليها سوى الاضطرار، أو لنقل الاستسلام لمشاهدة أفلام السينما التجارية وأفلام المقاولات!!

التعصب مستنقع التفريق الاجتماعي

يروى أن (واصل بن عطاء) أقبل في رفقة فأحس "الخوارج"، فقال (واصل) لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب فقالوا شأنك، فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله، ويعرفوا حدوده. فقالوا: قد أجرناكم، قال: فعلمونا. فجعلوا يعلمونه أحكامهم وجعل يقول: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فامضوا مصاحبين، فإنكم إخواننا! قال: ليس ذلك لكم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[1]، فأبلغونا مأمننا. فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوا المأمن. جاء ذلك في كتاب الكامل في اللغة والأدب للمبرد. والسؤال هنا لماذا يتظاهر أحد التابعين الكبار بأنه مشرك حتى يسلم من القتل؟!

تسليط الأنوار الكاشفة:

ركزت البحوث المعاصرة في العلاقة بين الدين والتعصب على الديانة المسيحية فقط؛ ذلك لأن أغلب الأبحاث قد أجريت في أمريكا الشمالية

[1] سورة التوبة، الآية 6.

وبعضها أو لنقل القليل منها شملت اليهود، لكنه من النادر أن نجد أبحاثاً منهجية أجريت على التعصب والعلاقة بالمعتقدات الأخرى كالبوذية والهندوسية والإسلام رغم انتشار هذه الديانات، وهذا الكلام يقودنا إلى عدم إمكانية إجراء تعميم أمبيريقي عن العلاقة بين الدين والتعصب لأن تطبيقاته المشهورة تنطبق بشكل كبير على الديانة المسيحية، وعند البحث عن أدبيات هذا المجال نلاحظ أن أغلب النتائج حاولت قياس ما إذا كان أعضاء الكنيسة أكثر تعصباً من غير المنتمين لها؟ وهل أعضاء الكنيسة النشيطين دينياً هم أقل تعصباً بالمقارنة بغير النشيطين دينياً أو متوسطي النشاط في الكنيسة؟

والحقيقة أن الشيء المهم في هذه الوقفة هو الالتفات إلى حالة الفقر في الدراسات الخاصة بواقعنا الثقافي والاجتماعي وطبيعة الخطاب الديني السائد والبحث عن إمكانية تسليط الأنوار الكاشفة على الذات، وأن الأسئلة السابقة التي تدور حول درجة التدين ومستوى التعصب تليق أن نطرحها لكي تلامس واقعنا عوضاً عن نقد الآخر الأجنبي؛ فالجميع يصاب بمرض اللعثمة وربما الخرس إذا كان الحديث له علاقة بالمساواة والحقوق وعدم التمييز بين الطوائف والمذاهب في الأوطان بحيث يتم استبداله بعبارات النقد والتهييج للناس ضد الآخر في عملية ترانزيت لأزمة التعصب والتفيئة الاجتماعية، وفتاوى التكفير التي نعايش نتائجها السلبية ميدانياً من الخليج إلى المحيط.

التعصب ونظرية التعلم الاجتماعي:

يقول الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون في (مذكراته) أنه تعلم

الوقوف ضد التمييز العنصري وهو طفل في البقالة التي كان يملكها جده في بلدة (هوب) في ولاية أركنساس، حيث كان الكثير من زبائن البقالة فقراء من السود الذين كانوا يسكنون في المقابر أو وراء البقالة، وكان جده يقول: إن لهم الحق في طرقات معبدة مثل سواهم؛ لأنهم يدفعون الضرائب مثل سواهم لكن حفيد البقال أخذ فرصته في تولي المناصب ليصبح مدعياً عاماً ثم حاكماً للولاية فزعيماً لوطنه، ولسان الحال يقول: في بلاد الجدارات يصل المواطن العادي إلى حيث يحلم!!

والحقيقة أن العدل والإنصاف وتحري الدقة في الحكم من شأن المسلم سواء كنا نحترم (بيل كلينتون) أم لا، فقد أمرنا أن نكون عادلين في أحكامنا ولو مع الذين نكرههم. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] معنى: لا يحملنكم بغضكم قوماً على عدم العدل معهم. ولعل (بيل كلينتون) قد نسي أن يذكر أن والد ريتشارد نيكسون كان بقالاً هو الآخر في الريف الأمريكي، وكذلك والد مارغريت تاتشر كان بقالاً في فنشلي شمال لندن؛ وبهذا يمكننا أن نؤسس على تلك المداخلة علاقة لفهم عملية التعصب، حيث تنشأ الاتجاهات التعصبية في العادة من خلال خبرات التعلم الخاصة التي يمر بها الطفل. فالتعصب يعد بمثابة (معيار) في ثقافة الشخص يتم اكتسابه بواسطة عملية التنشئة الاجتماعية، فيكتسب الأفراد اتجاهات التعصب مثلما يكتسبون الاتجاهات السلوكية الأخرى. وقد حددت نظرية التعلم الاجتماعي (social learning theory) ثلاث قنوات أساسية لعملية التنشئة الاجتماعية هي

[1] سورة المائدة، الآية 8.

(الوالدان + المدرسون + الأصدقاء) وكذلك الدور الهام لوسائل الإعلام الجماهيرية **mass-media**.

عنزة ولو طارت:

تذهب كثير من أدبيات وبحوث التعصب إلى أن هناك مجموعة من السمات الدالة على وجود (قابلية للتعصب) عند الأشخاص ومن أهمها الميل إلى (الانغلاق الفكري) أو ما يسميه روكيش **Rokeach** (الشخصية الدوغماتية) وهي الشخصية التي تقاوم تغيير الاعتقاد في ضوء المعلومات الجديدة وتلجأ إلى القوة لتبرير صحة الاعتقادات القائمة لديها. كما افترض (ألبرت) خمس درجات للسلوك التعصبي:أولاً: الانغلاق الفكري؛ ثانياً: التجنب؛ ثالثاً: منع بعض الحقوق عمَّن يستحقها؛ رابعاً: العدوان الفعلي (**physical attack**)؛ خامساً: القتل (**extermination**).

ويتفق الاثنان (روكيش) و(ألبرت) على الخاصية الأولى (الانغلاق الفكري) كمرحلة هامة للشخصية المتعصبة والذي يتقاطع بدوره مع المثل الشعبي الذي يقول (عنزة ولو طارت). ومعروف أن الأمثال الشعبية تختصر تجربة اجتماعية ذات دلالات ليست بالضرورة علمية لكنها مفيدة. وقصة هذا المثل الشعبي تحكي أن اثنين من الأصدقاء اختلفا حول كومة سوداء على قارعة الطريق، فقال الأول: إنه طائر فقال الثاني: (الشخصية الدوغماتية بحسب روكيش) إنها عنزة، فقال الأول: دعني أثبت لك أنه طائر وليست عنزة، فاقتربا من تلك الكومة السوداء، فإذا هو طائر يحلق في السماء فقال الثاني:أنا لم أقتنع حتى هذه اللحظة بأنه طائر لذا فهي (عنزة ولو طارت)!

التوجيه الأكاديمي في الحياة الجامعية

لا يختلف اثنان على وجود مشكلة خطيرة تواجه التعليم العالي تتمثل في الهدر الطلابي الكبير ولأسباب مختلفة تتفاوت بين من أخطؤوا في اختيار البرنامج الدراسي، أو من حصل على علامات متدنية في نتائج دراسته، أو من يعاني من مشكلات مالية أو عاطفية أو أسرية تؤدي به في النهاية إلى ترك الدراسة الجامعية.

في جميع الأحوال السابقة يترتب على ذلك أن تتحمل الجامعات ومعاهد التعليم العالي خسائر مالية كبيرة، هذا إلى جانب الشعور بخيبة الأمل التي تصيب الطالب وأسرته وما يترتب على ذلك من آثار سلبية بعيدة المدى على مستوى المواطن، وبمعادلة بسيطة لتكلفة العائد لميزانية التعليم نجد أن انسحاب آلاف الطلاب يعني فقدان وضياع ميزانية ضخمة. فلو أخذنا على سبيل المثال الافتراضي جامعة ما، وقلنا: إن عدد الطلاب فيها يقترب من (50) ألف طالب وإن المكافئة تقدر سنوياً بـ **600** مليون ريال، وكانت نسبة الانسحاب أو الطرد (**10%**) فكم مقدار الخسارة؟ وماذا لو أن هذه الخسارة وضعت لتطوير ودعم مشروعات وبرامج متميزة للإرشاد؟

الدعم الاجتماعي للطلاب:

النجاح في مساعدة الطلاب يعني العقلانية في الاهتمام بمخرجات التعليم؛ لذا بدأت في البلاد المتقدمة إعادة النظر مرة أخرى في دور (الخدمات الطلابية المساعدة)؛ وذلك بسبب وعيهم بالفوائد الاقتصادية والفوائد الوطنية ...إلخ، وقد تزايد في الفترة الأخيرة حجم الدراسات المتعلقة بدور التوجيه المهني والإرشاد الأكاديمي في الجامعات وكذلك الدراسات التي تركز على طرق التدريس الجديدة لرفع كفاءة أعضاء هيئة التدريس، ولعله من المهم أن نسلط الضوء في هذه السطور على بعض مشكلات التعثر الجامعية والتي من أهمها ما يواجهه طلاب الجامعات من عدم القدرة على التحصيل الدراسي، حيث يعاني بعض الطلاب من تدني التحصيل؛ ليس بسبب ضعف قدرتهم بل إن هناك أسباباً تشكل عوامل خفية (مستترة). على سبيل المثال: مسألة الانتقال من نمط التعليمي الثانوي إلى التعليم الجامعي دون تهيئة مسبقة لمرحلة مختلفة سواء في أسرهم أو على مستوى الدراسة الثانوية والتي يجب أن تعالج جوانب النقص في المعرفة لدى الطلاب عند التحاقهم بالجامعة، حيث يأتي بعض الطلاب من أوساط أسرية ليست لها دراية بالتعليم العالي ويعانون من مشاكل مع أبويهم؛ ويشعرون بعدم الدعم من قبل أصدقائهم وأسرهم؛ وهذا يترتب عليه عدم التمكن التام من الدراسة الجامعية مما يفقدهم الشعور بالأمان الذي كان متوفراً في أثناء الدراسة الثانوية؛ لذا نلاحظ أن بعض الطلاب يكون أداؤهم ممتازاً في مرحلة ما قبل الجامعة بسبب رقابة الأهل وبسبب التعليم القائم على الحفظ، لكن استقلالية الطالب وابتعاده عن رقابة الأهل وتعوده على أساليب لا تصلح

إلا في التعليم العالي تجعله يقع في مشكلات أكاديمية قد تتطور إلى مشكلات سلوكية، هذا الميراث الخاطئ في أسلوب التعليم في المرحلة الثانوية ترك بصمته على بعض الطلاب في عاداتهم الدراسية غير الملائمة، فبعضهم لم يتصور الدراسة دون توجيه ومساعدة، وبعضهم لا يجيد استعمال المكتبة أو القراءة بطريقة انتقائية ...إلخ. وتستطيع مراكز خدمة المجتمع في الجامعات ومعاهد التعليم العالي تقديم برامج ومحاضرات مكثفة وتنفيذ "ورش عمل" مصغرة يقوم بتنفيذها ذوو التخصص من الموجهين الأكاديميين لرفع مستوى تحصيل الطلاب المقصرين في دراستهم مما يساعد في رفع كفاءة الطلاب، منها على سبيل المثال (مهارة وتخطيط وتنظيم واستغلال وقت الدراسة بطريقة فعالة، مهارة القراءة السريعة، العلاقة الشخصية الناجحة مع الآخرين، الكتابة وتدوين المذكرات، مهارة الامتحان، التفكير الناقد والإبداعي)، كما أن الطالب في حياته الجامعية - سواء من الناحية الاجتماعية أو العلمية - يجد نفسه بحاجة إلى اكتساب بعض المهارات والقيم والاتجاهات التي يصعب تعلمها عن طريق المحاضرات والقراءة في الكتب. فممارسة النظام وتقدير قيمة الوقت وأهمية عمل الفريق وحسن التعامل مع الأجهزة والمعدات والمراجع والتفكير المستقل (عدم المسايرة) يكتسبها الطلاب بالقدوة والممارسة والتدريب الهادف المدروس، وهنا يأتي دور الجمعيات الطلابية التي لا يجب أن لا تعيش الفئوية والإقليمية حتى يكون تأثيرها فاعلاً.

الأفكار الجديدة في التوجيه الأكاديمي:

لقد حاولت بعض الجامعات العالمية تقديم أفكار جديدة في مسألة

(التوجيـه الأكـاديمي)، وتعتـبر جامعـة سـتراثكلايد (Strathclyde University) من بين أوائل تلك الجامعات؛ حيـث قـدمت تجربـة (المركـز التعليمي) والذي يمكن أن يلتحق به الطالب الجامعي متـى شـاء بـدلاً مـن تقـديم بـرامج في المهـارات الدراسـية التقليديـة. ويوجـد في هـذا (المركـز التعليمي) وهو عبارة عن غرفة مقرها أحد مباني الفصول الدراسـية بحيـث يمكن لأي طالب زيارة المركـز واسـتخدامه بـدون حجـز أو أي إجـراءات بيروقراطيـة. والمركـز مـزود بمجموعـة صـغيرة مـن الكتـب والكتيبـات والأشرطة الصوتية وبرامج تجمع بين الأشرطة الصوتية والشرائح وأشرطـة الفيديو وتبحث في موضوعات مختلفـة مثـل تنظـيم الوقـت وكتـابة المقـال وكتابة التقارير وتدوين المذكرات والقراءة السريعة والاستعداد للامتحـان، وتختلف المواد في مستوياتها وتصميمها.

كما أن هناك أيضاً تجربة عالمية أخرى جـديرة بـالاطلاع وقـد تمـت في جامعة (بيتسبرغ) حول (التعلـم الذاتي) وهي تقوم على فكرة "المجموعـات الصغيرة" بحيث يشرف (الأستاذ المرشد) على برنامج دراسي معين يدرسـه مع طلابه. ويلعب (الأستاذ المرشـد) دور قائـد المجموعـة عـلى هيئـة فريـق يساند بعضه البعض في عملية التعلم. ويتم تشجيع الطلاب أن يتعلموا مـن بعضهم البعض عن طريق الاستفسـار وطلـب الإيضـاح، ويقـدّم الطـلاب أفضل مهارة من خلال نموذج لخطوات التعلم، فعلى سـبيل المثـال لتـدريب الطلاب على مهارة القراءة يطلب منهم قراءة فصل من كتاب ويتم البرنامج في سبع خطوات:

"أن يقرأ الطالب بطريقة انتقائية - أن يدون مذكرات بعد كـل قسـم

يقرأه - أن يصوغ هذه المذكرات ويدرك العلاقات التي تتخلل النص وأن يأتي بتبصر جديد -كتابة ملخص أو عرض موجز للمذكرات - توجيه تساؤلات أو تقمص دور الأستاذ بتوجيه تساؤلات عن الكتاب الدراسي -التدريب على الإجابة- تقويم الأجوبة".

وخلال تلك التجربة يشجع (الأستاذ المرشد) الطلاب أن يتحدثوا بحرية عن البرامج الدراسية وما يلاقونه من صعوبات ويشرح لهم دور المجموعة في التعلم، وفي الجلسات التالية يجرب معهم سلوكيات جديدة للتعلم بحيث تزداد ثقة المجموعة بنفسها؛ وعليه يتضاءل دور الموجه معهم وبهذه الطريقة يتم تشكيل سلوك الطلاب إلى أن يتم تحقيق الأهداف المرجوة من الإرشاد الأكاديمي من خلال فكرة (التعلم الذاتي).

لم يكن القصد من استعراض التجارب السابقة حصرها، فلا شك أن هناك تجارب متميزة لبعض جامعاتنا في الوطن العربي، لكن القصد أن نتجاوز الأساليب التقليدية في الاتصال الأحادي الاتجاه بين الأستاذ الجامعي والطالب وأن تنبثق حالة جديدة فيما يتصل بالتوجيه الأكاديمي فلكل بيئة اجتماعية وثقافية تمايزها، ولكننا استلهمنا روح الشعار القائل (فكر عالمياً وتحرك محلياً).

الثقل السياسي للعمل التطوعي

يعتبر العمل الخيري والتطوعي سلاحاً متميزاً في يد القواعد الشعبية من عامة الناس، والمؤسف أن عدداً غير قليل من الناس لا يدرك تلك القوة المختزنة في حركتها بسبب قلة الوعي السياسي والثقافي؛ وكذلك بسبب تعقد وتداخل طبيعة النشاط الأهلي.

إن من أبرز ملامح المرحلة الراهنة على المستوى العالمي قدرة المؤسسات التطوعية والأهلية على الاستقلال عن كيان الدولة الحديثة، هذا الاستقلال ساعد على بلورة قوة خفية وهيأ المناخ بصناعة آلية لها خاصية المناورة والحركة والضغط على الدولة بشكل عام وفي كافة أرجاء العالم.

نعم في الوطن العربي - وفي الكثير من الدول النامية - ما يزال العمل التطوعي والأهلي يمارس تحت مظلة الدور المكمل والمساند للدولة، وهو ما يمكننا تسميته بدور (سد الثغرات) انطلاقاً من أنه في كل وزارة ومؤسسة هناك اهتمام بقطاع معين ويأتي دور العمل التطوعي كخطوة لاحقة (دور الخادم المطيع) الذي يقدم المجهودات والموارد لمساعدة المؤسسات الرسمية لاستكمال مسؤولياتها ومهامها.

ونرغب هنا أن نسجل إشكالية قائمة حول (مفهوم الخدمة العامة) أو ما يعرف بمساهمة مؤسسات جمعيات النفع العام والتي تمثل في

العصر الراهن القطب الثالث من أقطاب التنمية إلى جانب القطاع الخاص والقطاع الحكومي.

لقد عملت بعض قيادات العمل التطوعي -من دون قصد- إلى التركيز على نمط من أعمال ومؤسسات جمعيات النفع العام والمتمثل في الإغاثة والدعوة فقط، دون الالتفات إلى الجمعيات العلمية والثقافية والحقوقية والنقابية وحماية البيئة ...إلخ. هذا الفرز والتركيز على أعمال الإغاثة والدعوة أطّر وحجّم الأنشطة الأهلية والتطوعية الأخرى، والسؤال: لماذا تنجح أعمال الجمعيات الدعوية وتفشل أعمال الجمعيات الثقافية والفنية والمهنية والحقوقية؟ مع أن الأخيرة جزء من مؤسسات النفع العام.

بجرأة عليها مسحة من الأدب نقول: إن هناك موقف أخلاقي في تراثنا العربي الإسلامي بحاجة إلى خطاب ديني جديد يستوعب ويبشر ببعض الأنشطة الإنسانية والتطوعية التي لم تكن معهودة ضمن التجربة التاريخية، ومن ثم العمل على دفعها إلى مواقع أمامية في المجتمع. فإذا كانت مجتمعاتنا متدينة فهذا يعني أن هناك علاقة شرطية بين الأعمال وطلب الأجر في الآخرة؛ لذلك تذهب التبرعات والزكوات والصدقات والأوقاف في خدمة جمعيات محددة، وتحرم منها الجمعيات العلمية والمهنية والحقوقية والثقافية.

الموقف الأخلاقي في التراث العربي يركز على سرية العمل الخيري وعدم الحديث عنه -سواء كان مساعدة مالية أو مساعدة عينية- والحديث القدسي يقول: "رجل لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه". إن طبيعة التطور

الاجتماعي يتطلب خطاباً دينياً جديداً يبين القيم الدينية التي تختزنها بعض الأنشطة الإنسانية والاجتماعية والحقوقية الأخرى، ويبرز نبل وعظمة تلك الأعمال لفتح آفاق تهيئ الناس لقبول أنماط مختلفة من خدمات مؤسسات النفع العام، وبذلك الخطاب فإننا نضيف بعداً إنسانياً وسياسياً لأعمالنا الخيرية. إننا لا نقصد أن نقود الحديث إلى الاحتدام عبر ثنائية رجل الدين والمثقف في حراكهما الاجتماعي ونشاطهما التطوعي، رجل الدين برأس ماله التقديسي، والمثقف برأس ماله الدنيوي. تلك ثنائية تستبطن داخلها منطقاً تفضيلياً يوحي بدلالة تبخيسية وقدحية من قبيل التخلف والانغلاق والتقليدية التي يمثلها رجل الدين في قبال دلالات تبرز المثقف بوصفه تنويرياً منفتحاً صاحب رسالة نهضوية.

حديثنا بعيد عن هذه المقاربة التي تنحاز للمثقف وتنتصر له لأننا نعتقد بأن الوصول لله لا يتم عبر المحراب فقط، بل حتى عبر خدمة الإنسان لأخيه الإنسان (الخلق عيال الله) وهكذا يلتقي الجميع على طريق حب الله الطويل.

إن شموخ العمل التطوعي تكمن في قدرته على التحكم وبشفافية في كسر المفهوم الثنائي، اليد العليا واليد السفلى والمكرمة والعفو، إنه تفعيل ميداني وحقيقي للكلمات المقدسة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]، فالعمل الخيري والتطوعي جماعي أهلي اختياري لا إكراه فيه، متألق بالحرية ومنعتق من العبودية ومفعم بـ "الإيمان" ويستهدف العطاء دون انتظار المقابل، وأفراده متحررون من عقد الإقليمية والقبلية والطائفية لأن خدماتهم تصل إلى كافة

[1] سورة الإسراء، الآية 70.

الناس (حضر - ريف - بادية) وبدون هذه النخبة يكون المجتمع عباءة مليئة بآلاف الثقوب.

إن الثقل السياسي للعمل التطوعي يتجسد في أسبقيته وجاهزيته على مؤسسات الحكومة (نقصد أي حكومة كانت) في ارتياد ميادين عمل جديدة وبرامج ومشاريع إبداعية تتفوق على اهتمام وعقليات أصحاب القرار في الأجهزة الرسمية وبيروقراطيتها المميتة؛ مما يرغم الحكومات فيما بعد ويضطرها إلى تحمل المسؤولية عن الجمعيات والهيئات التطوعية بعد أن تكون قد بدأتها وأظهرت ضرورتها وحاجة المجتمع لها.

ومن هنا فهي عامل ضغط وتأثير على السلطة للاهتمام بمجالات خدمة وبرامج لا ترغب الحكومة بمباشرتها، ولم تكن من ضمن أولوياتها. ولكن قيام النشاط التطوعي بإثارة الموضوع وإيصاله إلى السطح المرئي المحسوس لا يترك للحكومة خياراً ولا مناصاً، ولن يتحقق الثقل السياسي للعمل التطوعي بدون (قيادات واعية) متمكنة لديها (رؤية وإستراتيجية) على أن تتوفر في هذه القيادات الاجتماعية (الكفاءة + الإخلاص) أو (القوة والإيمان) حتى نتعلم من نبي الله موسى (الإيمان) ولا يقتصر تعليمنا على القوة (هتلر) كما عبر عن ذلك المفكر اليهودي (مارتن بوير) حين قال: إن أغلبية الشعب اليهودي فضلت أن تتعلم من هتلر أكثر مما تعلمت من موسى. ذلك لأن هتلر أثبت أن التاريخ ليس من نصيب من يملك الإيمان ولكنه من نصيب من يملك القوة".

الحوار السني - الشيعي والابتزاز الإعلامي

إننا في هذه المرحلة الصعبة بحاجة إلى نماذج سلوكية وحوارات إسلامية راقية على غرار ما قام به العلامة الشيعي محمد جواد مغنية والعلامة السني محمود شلتوت، اللذان كانا يجلسان مع بعضهما على بساط الأخوة الإسلامية بلا تصنع، بحيث كانا يجتمعان في مصر في جو مشبع بالحميمية والود وكان الحديث بينهما يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل، فكان كل منهما يحترم فقه الآخر وتراث الآخر، وكانا يعيشان والقواسم المشتركة تتفاعل، وكانت فلسطين في قلب كليهما رغم أن هذا ينهل من التراكم الثقافي الفقهي للأزهر وذاك ينهل من مؤسسة النجف ذات الألف عام.

إننا نخشى أن يقحم الدين في صراع اللعبة الإعلامية بحيث تُسطح القضايا ويُعزز التنميط **stereotyping** على مستوى عقلية المواطن العادي، بمعنى أن يرسم المواطن نهايات جامدة وسلبية من خلال الإثارات الطائفية (السنة نواصب يكرهون أهل البيت - الشيعة روافض يسبون الصحابة)! بحيث تشكل هذه النهايات المغلقة ثقافة تحتية لعلاقات الناس في مجتمعاتنا؛ مما يجعلنا على المدى البعيد نقف على أرضية هشة من البناء الوطني. والحقيقة أننا لسنا ضد الحوار، بل نحن من المؤيدين للحوار والتواصل الفكري ومن

الداعين له، والجميع يعلم أننا كمسلمين نمتلك رصيداً حضارياً في علم وأدب البحث أو ما يعرف بأدب المناظرة، والعلماء منذ القدم قد دعوا إلى ضبط المناظرات عن طريق ما أسموه (تحرير الخلاف)، أي تحديد نقاط الخلاف وجدول الأعمال، وتاريخنا الإسلامي مزدهر بالمناظرات بين الفقهاء من مختلف المذاهب، وللإمام الشافعي مناظرة شهيرة تتردد في مختلف كتب الفقه مع إسحاق بن رهاويه، ويذكر الشيخ محمد الخضري في مؤلفه (تاريخ التشريع الإسلامي) أنه في القرن الرابع الهجري لم تكن هناك مدينة في العراق أو خراسان تخلو من مجالس المناظرة بين العلماء تعقد أمام الوزراء والكبراء، وأحياناً كانت تجرى المناظرات في مجالس العزاء.

في هذه المرحلة نرغب أن ننبه النخبة المثقفة السنية/ الشيعية أن لا تقع في الفخ الطائفي، فقد كان لنا في تجربة حرب الخليج الأولى دروس وعبر حيث استخدمت الطائفية بشكل مقنن. في هذه المرحلة قد يضغط عوام (السنة/ الشيعة) باتجاه تصعيد لغة الاتهامات، وقد تنسجم العامة من الناس مع ذلك النمط من الحوار الذي جرى وتقوم بترديده وإضافة مفردات جديدة تشغل معارك جانبية تختزن حالة من الجهل والتعصب والغفلة مما ينعكس سلباً على طبيعة العلاقات بين المسلمين وبين أبناء الوطن الواحد على المدى البعيد، لكن لا يجب علينا أن نستسلم (لسلطة الشارع أو بوليسية السلطة).

إن التقدم والتحضر ليس ضربة حظ ولكنه فعل وإنجاز من قبل (الطليعة الواعية) التي تعمل على خلق مناخ يهيئ لثقافة الحوار. نحن مقتنعون بأن الحوار الهادف خطوة هامة باعتبارها قيمة عليا في المجتمع

وباعتبارها خياراً إستراتيجياً لتعايش الأمة الواحدة، بحيث يتوافر للمتحاورين منابر تسمح لهم بالتعبير عن آرائهم والمشاركة بصورة حرة وإيجابية، وليس من مصلحة الحوار ولا من مصلحة الوطن أن يتحول أطراف الحوار إلى مادة إعلامية في يد الفضائيات التي تخفى علينا غاياتها ومرجعيتها الفكرية في ظل أجواء التنافس الإعلامي المحموم والتي قد تكون امتداداً لبرامج الإثارة والدخول في لعبة كيف تستقطب أكبر عدد ممكن من المشاهدين؟ حتى لو كان على حساب قضايانا المصيرية ووحدة الأمة في عملية تشبه الجلوس على الرؤوس المقطوعة.

على افتراض صحة ما ذكرناه سابقاً نكون قد وقعنا في كمين (فساد النخبة الإعلامية في الوطن العربي) وذلك بسبب وجود الكوادر المثقفة والطاقات القلمية الذين يتواجدون ويقفون وراء كل محطة فضائية - العقل المفكر - فنحن لا نعاني من مشكلة الأنظمة الشمولية، بل إن أزمتنا الحقيقية هي في وجود النخبة المثقفة الفاسدة التي تبحث عن المكسب الإعلامي والدعائي على حساب النتائج في الواقع الميداني المعاش.

لمصلحة من يفتح جرح الخلافات السنية الشيعية وبطريقة استفزازية يمس خلالها وبأسلوب سوقي مقدسات كل من الطرفين؟ ألا يعتبر ما حدث نوعاً من التراجع أمام الخط الذي بدأه الشهيد (حسن البنا) الذي أطلق فكرة الوحدة الإسلامية الحركية فيما بين الشيعة والسنة عندما طرح الشعار الذي يقول: "نلتقي فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه". هذا التراجع أو النكوص يستوجب من المثقفين المخلصين أن يقولوا كلمتهم فيما حدث بهدف تصحيحه لا دفعه وتشجيعه، حتى لا ينتج عنه

المزيد من الانفصال والانعزال بحيث لا يلتقي فيه الإنسان المسلم بأخيه المسلم، ولا يعرف عنه إلا من خلال الإشاعات والكتب الموجهة التي تحاول أن تشوه الصورة ولا يفسح فيها المجال لكتب أخرى تتولى التوضيح.

هناك أسئلة كثيرة مهمة ومركزية يجب على العلماء والمثقفين الوقوف عندها حتى ينقدح حوار إيجابي وبناء، منها على سبيل المثال: لماذا تراجعت علائق السنة والشيعة عما كانت عليه قبل نصف قرن مضى؟ لماذا كان حماس العلماء للتقريب في الأربعينيات أكبر منه الآن ونحن على أعتاب الألفية الثالثة؟ هل السبب في برود حركة التقريب هو تراجع الهامش الديمقراطي في الوطن العربي وتعاظم دور الدولة؟ لماذا دعاة التفريق ما زالت تجد من ينصت لها؟ هل تراجع استقلال العلماء وانكمش دورهم داخل الدائرة الرسمية فقط؟ أين تلك النخبة من العلماء الذين سعوا في الأربعينيات من أجل التقريب أمثال الشيخ شلتوت رحمه الله والذي ينسب إليه أنه من مؤسسي جماعة التقريب بين المذاهب التي أصدرت مجلة جامعة باسم (رسالة الإسلام) ظلت تصدر طيلة أربعة عشر عاماً، كما أن الجماعة اعتمدت تفسيراً للقرآن اجتمع عليه علماء السنة والشيعة وهو (مجمع البيان لعلوم القرآن) للطبرسي الذي استغرقت تهيئته للنشر مدة عشرين عاماً وأشرف على هذه العملية ثلاثة من أكابر علماء الأزهر هم الشيوخ: عبدالمجيد سليم، ومحمود شلتوت، ومحمد المدني. كما كانت لهم محاولة في تجميع الأحاديث المتفق عليها بين السنة والشيعة، ولعل تلك المحاولة تنتظر من ينذر النفس لها حتى ترى النور. لماذا لا نقبل الخلاف الفكري ما دام في دائرة معقولة ونرحب بالخلاف المذهبي باعتباره وليد آراء اجتهادية مرجعها

الكتاب والسنة وننظر إلى الاختلاف الفقهي على أنه مفخرة للمسلمين لأنه دليل خصوبة في التفكير وسعة في الأفق؟ وهل من اللائق أن نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا الاستهتار الإعلامي؟

نقول ربما نكتشف مذاقاً حلواً حين نكون في مواجهة مع (سلطة الإعلام) يفوق المذاق المر لهذه العلاقة حين نكون مهمشين وخاضعين له! وربما يكون من الأفضل أن نعمل على تخفيف سلبيات ما حدث كخطوة أولى في طريق الوحدة، ولا نقصد بالوحدة أن يتنازل أي من الطرفين عن مبادئه، بل كما عبر محمد حسين آل كاشف الغطاء حين كتب في مجلة رسالة الإسلام نداء إلى المسلمين يقول فيه: من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلامية إزالة أصل الخلاف بينها بل أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سبباً للعداء والبغضاء.

ولا شك أن هناك خطوات عملية يقتضي الموقف الإيجابي طرحها ومباشرتها، منها على سبيل المثال إحياء اللقاءات والندوات المشتركة بين العلماء لمختلف المذاهب بهدف تحريك مياه الوحدة الإسلامية الراكدة منذ سنوات، كما أن خط العلاقات الشخصية بين العلماء السنة والشيعة يشكل عنصراً هاماً حتى تخرج معطيات تلك اللقاءات من أجوائها الرسمية والبروتوكولية.

كما يجب التذكير بسلم الأولويات وتقديم القضايا المركزية في حياة الأمة والابتعاد عن الاعتراك الجانبي فعندما نتوجه إلى قلب قضيتنا المركزية (القدس) سوف تتوحد قلوب الأمة؛ لأن العدو الإسرائيلي (الآلة الاستعمارية العاتية) يوجه رصاصه إلى يحيى عياش السني وإلى علي أشمر

الشيعي ويغتال العدو الإسرائيلي فتحي الشقاقي زعيم حركة الجهاد السنية وفي الوقت نفسه يغتال عباس الموسوي زعيم حزب الله الشيعي. إن الرصاص الإسرائيلي لا يميز السنة والشيعة لأنهم في حالة مواجهة معه ولكن الرصاص الإسرائيلي يستثني من يغذي الطائفية لأنه يخدم أهداف إسرائيل.

وأذكر الجميع بقول الشاعر العربي: يا تلاميذ غزة ... علمونا بعض ما عندكم فقد نسينا!!

الرسوم المتحركة... الثقافة الغائبة

يذهب (ديورانت) إلى أن حضارة الصينيين أو الجنس الأصفر تتمثل على نحو أشمل في أصابعهم، وحضارة الإغريق في فكرهم، أما حضارة العرب فهي في أدبهم، ولا ريب أن كل البشر يستخدمون أصابعهم وألسنتهم وأفكارهم إلا أن الإشارة هنا إلى علامات تمايز ذات دلالات حضارية متباينة.

لكن ثقافتنا يبدو أنها تسير برجل واحدة حيث تم اختزالها في الثقافة الأدبية. فمعظم المشتغلين بالعمل الثقافي لا يستوقفهم سوى الشعر والقصة والمقالة وأحياناً على استحياء المسرح. فإذا كان ذلك هو حال ثقافة الكبار فإن حال ثقافة الأطفال أشد سوءاً وأدعى للأسف والحزن!

يتضح للمتأمل في تراث الثقافات العالمية أن هناك علاقة حميمة بين خصائص تلك الثقافات والمشروعات الإبداعية وطبيعة الحراك الاجتماعي، المجتمعات الغربية على سبيل المثال تعيش نوعاً من الثورة الحقوقية؛ فانعكس ذلك على طبيعة اهتماماتهم التي يقع ضمنها (حقوق الطفل)؛ لذا لم يكن مستغرباً أن يعقد مؤتمر عالمي للهّايات الأطفال (أي المصاصة) حيث حضرت هذا المؤتمر وفود (26) دولة، اجتمع خلالها الخبراء والأطباء في

جنيف بسويسرا - أرقى الدول الأوروبية على الإطلاق - وقدمت خلاله دراسات وأوراق وبحوث علمية واختبارات معملية أجريت على مدى سنوات طويلة، لكن الناس في وطننا العربي منشغلة بفتاوى التكفير والسيارات المفخخة!

ميدان الكتابة للأطفال:

إذا كان لكل فن من الفنون مزاياه الخاصة وطموحاته وقصوره الذاتي فإن لفن الرسوم المتحركة خصوصيته المتميزة بالمباشرة والذكاء الذي نشاهده من خلال هذا الانتشار الواسع الذي مكنه أن يبني له قاعدة عريضة من الجمهور العالمي.

ولعل أوضح مثال واقعي نختزل به الحديث هو ملاحظة الأبناء أمام الشاشة الصغيرة وهم يشاهدون أحد أفلام الرسوم المتحركة - إذ نرى حالة من الانقطاع والطاعة العمياء لهذا الجهاز الساحر - هذه الملاحظة السلوكية تثير فضول المهتمين والتربويين بمدى تأثير هذا النوع من الأفلام على الأبناء وعلى الإطار القيمي والأخلاقي لثقافة أي مجتمع من المجتمعات ونقصد به (الخصوصية الثقافية).

لا شك أن لمثل هذه الأفلام جانبها الإبداعي وقد يكون طابع المرح وسيطرة روح النكتة والخيال الخصب أحد هذه الإبداعات. لكننا يجب أن لا نغفل أن هناك الكثير من القضايا الكبيرة المتمثلة في الرسائل الضمنية لهذه التقنية؛ لأنها قد استلفت مفرداتها من طبيعة مضامين ثقافة أخرى، وهي في الأغلب تنتمي إلى المدرسة الغربية والتي يغلب على إنتاجها الفني مفهوم نفعي اجتماعي، والواقع أن المشكلة الحقيقية لا تتمثل في أفلام

الرسوم المتحركة بل في تجاهل دور الرسوم المتحركة الذي يعتبر مؤشراً وعنواناً قوياً لغياب خطة متكاملة للاهتمام بالطفولة في الوطن العربي بحيث تستوعب واقع هذا المجتمع وحاجات الأطفال النفسية والثقافية.

خط الشعار وخط التجربة:

قد يكون من السهل الحديث عن المهمات الأساسية لبرامج الأطفال من قبيل تطوير مهارات الطفل ونقل خبرات جديدة إلى حياته وتعليمه معايير السلوك الإنساني، أو تعزيز ثقته بنفسه وتعميق إيمانه بأهداف وفلسفة المجتمع...إلخ. هذا في الإطار النظري، لكن الصعوبة تكمن في آلية تحويل هذا الإطار النظري إلى واقع محسوس، ونورد هنا مثالاً على صعوبة إنتاج برامج الأطفال وهو برنامج (افتح يا سمسم) كدليل على صعوبة برامج الأطفال وتكلفتها المادية واحتياجاتها من الكادر البشري، فقد قام الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي في دولة الكويت بمشروع "افتح يا سمسم" بتكلفة (7.5) مليون دولار وقد تضمن (170) هدفاً سلوكياً وقامت المؤسسة بمجموعة من الاختبارات اللغوية، قسمت خلالها الوطن العربي إلى أربعة أقسام لتطبيق الاختبارات حيث تم اختيار (4) مدن مختلفة. كما حاول البرنامج الجمع بين البحوث الأكاديمية والتجربة الميدانية وبين الإنتاج الفني. كما وجهت الدعوة إلى خمسين من رجال الفكر والتربية والإعلام العرب لحضور ومشاهدة حلقتين من هذا البرنامج. هكذا يبدو المشهد والجهد لإنتاج مادة واحدة فقط من مشروع ثقافي ضخم؟

من جانب آخر يجب إشراك أهل الاختصاص والتربية في مجمل برامج الأطفال لأنها مصدر هام لمعايير السلوك والقيم، وعلى ذلك يحق لنا

السؤال عن معايير السلوك التي نقدمها للأطفال في المرحلة الراهنة - مرحلة التحول- خصوصاً إذا علمنا أن هذه البرامج قد أخذت مهمة الجد والجدة (المنزل) في عصر ما قبل التلفزيون ووضعتها في إطار تلفزيوني، بمعنى وجود مدرس أجنبي داخل المنزل، ويعزز كلامنا ما قام به فريق من الباحثين بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية في مصر الذين أعلنوا أن الطفل المصري يمكث أمام شاشة التلفزيون (2000) ساعة في العام أي 83 يوماً أي خمس سنة أو خمس عمره؟

إن معظم برامج الأطفال في الوطن العربي مستوردة أو معربة، فهي لا تنطلق من فهم حقيقي لطبيعة المجتمع بحيث تطرح قيماً مدروسة وهادفة وقريبة لمعالجة قضايانا الاجتماعية والسلوكية، كقيمة العمل اليدوي الاجتماعية ومفهوم الأسرة والجيرة والأخوة والقرابة واحترام الأب والأم وأفراد المجتمع ومفاهيم الغنى والفقر والربح والخسارة ومفاهيم الحريات والحق والواجب.

الجوع الثقافي:

ذكر كاتب الأطفال الأستاذ عبدالتواب يوسف في مؤتمر أدبي أن نصيب الطفل الأوروبي من الكتب المخصصة له يزيد على ثمانية كتب في السنة بينما لا يقدم كتّابنا وناشرونا إلى أطفالنا في العالم العربي إلا (جملة واحدة) أو سطراً واحداً في صفحة على الأكثر لكل طفل في السنة؟

تأسيساً على ذلك نقول: إن الطفل العربي يعاني من مجاعة ثقافية، والتلفزيون أصبح القناة الوحيدة التي يتعامل معها، إذ تشكل أفلام الرسوم المتحركة المادة الأساسية فيها. بينما هناك وسائل ثقافية أخرى كالمجلات

الموجهة للطفل لها أثر في تكوين شخصية الطفل وإن كانت قليلة جداً مقارنة بمجلات الطفل في العالم الغربي حيث يقرأ الطفل الغربي من عشر إلى اثنتي عشرة مجلة. ويوجد في أمريكا ما يقارب من أربعة آلاف مجلة!! كما أننا نتساءل عن دور مسرح الطفل وعدد المسرحيات التي يشاهدها الطفل العربي في مرحلة طفولته؟ وكم عدد المكتبات العامة في الوطن العربي؟ على أنه يجب أن لا ننسى أن المكتبة العامة في المجتمعات الأخرى هي أول شيء يوضع في المخططات السكنية!

المال والهوية الثقافية:

عندما رفض (المجلس العربي للطفولة والتنمية) العرض الذي تقدمت به شركة (والت ديزني) الأمريكية للعب الأطفال والأفلام لشراء بعض الشخصيات الكرتونية العربية كانت هناك أسباب ثقافية وراء ذلك الرفض. من بين أهم أسباب الرفض أن المجلس يسعى لصنع أفلام عربية من الشخصيات الكرتونية لتعميق الهوية العربية لدى الأطفال العرب وكذلك تشجيع رجال الأعمال العرب بإنتاج دمية عربية على غرار الدمية (باربي) الأمريكية.

نعم لقد قامت بعض الدول العربية بمحاولات في مجال صنع لعبة تعبر عن الشخصية العربية بعيداً عن باربي والبوكيمون وميكي ماوس كما هو الحال في محاولة مصر إنتاج مسلسلات كرتونية للأطفال مثل: سندباد وبكار. (بكار شخصية مصرية نوبية من جنوب مصر حيث المعابد الفرعونية)، وقد بدأ هذا الإنتاج ينتشر منذ عام **1998**م حتى أن دولة كبيرة مثل الصين قامت بشراء حلقاته ووضعتها على شرائط (سي. دي) لتسويقها

ودخل المنافسة في مهرجان (برجينث) للأطفال في برلين ووصل إلى المراكز النهائية في المنافسة!

المال عامل مهم في الانتشار العالمي للمشروعات الثقافية، فقد كانت تكلفة الدقيقة في مسلسل بكار لا تتعدى (6000) جنيه مصري أي ما كان يعادل حينها (1500 دولار) في حين تصل تكلفة الدقيقة في فيلم كرتوني أجنبي مثل (أحدب نوتردام) إلى مليون ونصف المليون دولار شاملة التصوير والتأليف والمونتاج والإخراج، ويشكر الأخوة في مصر على هذه المحاولة التي شارك فيها (75) رسام كاريكاتير و(7) مخرجين للرسوم المتحركة، لكن أين رجال الأعمال العرب من المشروعات الثقافية؟

الأسواق العربية في (22) دولة عربية وتعداد سكاني (300) مليون عربي متروكة لغيرهم. نوقشت مسألة إنتاج عروس عربية في اجتماعات الجامعة العربية والإدارة العامة للشؤون الاجتماعية والثقافية بالجامعة وطرحت أسماء للعروس العربية منها اسم (ليلى)، لكن هذا المشروع لم يتقدم حتى حينه إلى الأمام علماً بأن تكلفة مشروع الدمية العربية تقدر بـ (3 مليون دولار) فقط! في الوقت الذي نجحت بعض الدول الإسلامية وبتميز في إنتاج عروس خاصة بها كما هو الحال في إيران، فقد لاقت العروس الإيرانية المحجبة (سارة) رواجاً في السوق الإيرانية وحققت أرباحاً كبيرة وكذلك فعلت البوسنة عندما أنتجت العروس (أمينة).

العرب يستوردون (95) في المئة من لعب الأطفال التي يستهلكونها من الخارج وتذهب حصيلتها إلى دول أخرى، بينما هناك دولٌ كثيرة مثل اليابان وتايلند والفلبين ودول شرق آسيا عموماً نهضت اقتصادياتها على

أكتاف صناعة الرسوم المتحركة ولعب الأطفال. هنا يجب التذكير بالدراسة الصادرة عن الجامعة العربية والتي حذرت من أن الأطفال العرب مستهدفون من جانب (إسرائيل) حيث أبدت الدولة الصهيونية اهتماماً بصناعة لعب الأطفال مستخدمة الأيدي العاملة الفلسطينية الرخيصة لتخفيض أسعار اللعب وللسيطرة على سوق الشرق الأوسط وكذلك للسيطرة على عقول وأفئدة أطفال العرب.

البعد السيكولوجي:

في عالمنا العربي نعاني من أزمة كتابة وأزمة إنتاج في الرسوم المتحركة، مما دفعنا للكتابة حول هذا الموضوع -مسألة أدب وثقافة الأطفال- حتى تكون ضمن بوصلة الاهتمام، فمجتمعنا العربي (فتي) تبلغ فيه نسبة الأطفال ما يزيد عن النصف، وعليه فلا يغفر للمثقفين والمختصين في هذا المجال تقاعسهم، فإذا كانت السينما تتكون من مثلث أضلاعه هي (تجارة وصناعة وفن) فالرسوم المتحركة تنطبق عليها أيضاً مكونات هذا المثلث، ويمكن للمهتمين التحرك من خلال العناصر الثلاثة.

التجارة يعبر عنها بالتمويل المادي المتمثل في الإنتاج ودورة رأس المال، ثم الضلع الثاني وهو الصناعة وذلك باستخدام التكنولوجيا في التنفيذ وباستخدام الكاميرات وبرامج الكمبيوتر، والضلع الثالث الذي تعتمد عليه الرسوم المتحركة هو (الفن) أي القصة أو الفكرة ومن خلالها يتم تحويل القصة المكتوبة إلى سيناريو أو حوار مرسوم (**Story Board**).

إن أعمال التوثيق في مجال أدب الطفل العربي لا تتيح لأي باحث أن يتناول هذا الموضوع بشكل يحيط بالعناصر الثلاثة بسبب عدم وجود

جهاز عربي يهتم بالمسألة باعتبارها تتعلق بأهم شريحة في المجتمع، كما أن طبيعة ثقافة الطفل تحتاج إلى شيء من (المعرفة السيكولوجية)، فالأطفال لا يشكلون جمهوراً متجانساً بل يختلفون باختلاف أطوار نموهم؛ لذا قسمت مراحل الطفولة إلى أطوار متعاقبة، فثمة مرحلتان خطيرتان في خط النمو ترتبطان بالخيال وبحسب رأي علماء نفس الطفل فإن المرحلة الأولى وهي بين الثالثة والخامسة من عمره يكون فيها خيال الطفل حاداً ولكنه محدود في إطار البيئة الضيقة؛ فيتصور العصا حصاناً ويتصور الدمية كائناً حياً، أما المرحلة الثانية فهي بين السادسة والثامنة وقد تمتد إلى التاسعة وفيها يتجاوز الخيال النطاق البيئي ويكتسب طابعاً إبداعياً. إنه الخيال المنطلق مع شوق عارم إلى الصور الذهنية غير المعقدة.

لذا أفادت منظمة الأمم المتحدة وحكومات الكومنولث البريطاني من وجود الأخصائيين في علم النفس الاجتماعي بأن عينتهم خبراء دائمين لمواجهة وصناعة مستقبل أطفالهم وشبابهم. كما أن دولة مثل الصين تنبهت - منذ وقت مبكر - إلى أهمية وخطورة (الرسوم المتحركة) والسينما العلمية الموجهة إلى الأطفال فأنشأت (13) ستوديو لإنتاج أفلام الخيال العلمي والأفلام التعليمية المتخصصة وأنتجت نحو (3000) فيلم خلال عشرين سنة ونال حوالي (80) فيلماً منها جوائز عالمية! فهل سنخرج من دائرة الثقافة العرجاء أم سنظل نعاني من العاهات الثقافية المستديمة؟

العفة اللفظية

يعتبر حسن الكلام من الموضوعات المرعية في آداب التعامل، بل هو من ضرورات الآداب العامة في السلوك الاجتماعي التي حث عليها الدين الحنيف منذُ القدم، وفي الثقافة المعاصرة نجد الحلقات التطبيقية والدورات التدريبية في مختلف المراكز العالمية تتبنى هذا (الفن) الأخلاقي باعتباره صفة وسمة يحتاج لها جميع الناس.

القول الميسور:

لغتنا العربية جميلة، وهي لغة القرآن ولها من السحر ما يمكنها من التوغل في ميدان العلاقات الإنسانية باعتبار أن اللغة وسيط هام في بناء جسور المودة بين الناس، وهذا عيناً ما دفع مؤلف قصة الحضارة (ويل ديورانت) إلى ذكر ثلاثة تعريفات مختزلة لثلاثة مستويات حضارية كبرى وهي الحضارة الصينية، والحضارة الإغريقية، وحضارة العرب المتمثلة في لسانهم، وتلك إشارة مباشرة إلى المعجزة القرآنية، فالعرب لم يكونوا في حاجة إلى معجزة حسية نفعية كما كان بنو إسرائيل يطلبون من أنبيائهم إنزال المائدة، كما لم يطلبوا معجزة خوارقية كولادة المسيح من العذراء، أو أن يمشي موسى على الماء أو أن يشق البحر بعصاه، لذا كانت معجزة القرآن في بلاغته.

وعندما نتتبع العديد من الأقوال في موروثنا الثقافي والديني نرصد زخماً من النصوص الدالة على إطراء القول اللين اللطيف وأثره في النفوس، فقد ورد عن الإمام علي قوله: "من لانت كلمته وجبت محبته". وقالت العرب في أمثالها الدارجة: "الكلام اللين يغلب الحق البين". وجاء في الحكمة الصينية القول المشهور: "إذا كان قلبك وردة فلا بد أن يتلفظ فمك بكلمات عطرة". والقرآن الكريم قبل ذلك كله شجع وحثّ على استخدام الكلام الرقيق الجميل، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[1]، و(ميسور) مشتقة من (يسر) بمعنى الراحة والسهولة ويشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالاحترام والمحبة.

العفة بين الظاهر والباطن:

إن الإطار اللفظي الذي نضع فيه كلماتنا هو في الحقيقة انعكاس لذواتنا، وكما قال الإمام علي: "تكلموا تعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه" بمعنى أن حسن الكلام واللباقة في الحديث مع الآخرين ليست مجرد كلمات تخرج من بين الشفتين ولكنها أداة دالة على مخزون القيم الذي يقف عليه الإنسان في حركته الاجتماعية فهو انعكاس الداخل على الخارج يقول الإمام الشافعي:

يخاطبني السفيه بكل قبح ... فأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة وأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

---

[1] سورة الإسراء، الآية 28.

ويدل حسن الكلام من جهة أخرى على مكنون ومعدن الإنسان ورجاحة عقله، يقول الإمام علي: (الألسن تترجم عما تجنه الضمائر) ويقول أيضاً: (يستدل على عقل كل امرئ بما يجري على لسانه) وقال الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

فالعفة اللفظية وإن كانت من الأمور الظاهرة لكن تعاليم الدين تربطها بالأخلاق والضوابط باعتبار أن لها دلالتها النفسية ولها علاقة مباشرة بالداخل، وقد فصل الشارع الإسلامي الفوارق بين الغيبة والنميمة والبهتان والسخرية والتنابز بالألقاب والهمز واللمز ...إلخ، فجميع تلك السلوكيات من الأمور المتعلقة بالاتصال الإنساني(حسن الكلام)فقد تكون اتصالات لفظية لكنها مقنعة بألفاظ تسبب التجريح والإهانة أو كما جاء في الأمثال العالمية: "في اللسان يختبئ تنين لا يسفح الدم ولكنه مع ذلك يقتل".

المشاحنات اللفظية:

العديد من العبادات تختزن مدلولات سلوكية راقية ومصممة لكي يمارسها الفرد وبشكل تطبيقي أي (بحسن الكلام) كما هو الحال في (شعيرة الحج) وفي شهر (رمضان المبارك)، تلك التدريبات على حفظ اللسان تشبه الحلقات أو الدورات التدريبية التي تتم في معاهد الإدارة ومراكز التدريب العالمية لكنها متجذرة في الوجدان القيمي ومترسة بالتعاليم الربانية تتم بشكل تلقائي وبدون إجراءات رسمية وبلا مساحيق أكاديمية، فقد يقوم الفرد منا بالتحرك من أجل الدفاع عن فكرته ضد المعارضين فيتحول

الموقف إلى أجواء مشحونة بالتوتر الفكري والنفسي والكلامي من أجل الوصول إلى الغلبة، لذا يجدر بنا التمعن في الفرق بين (الجدل والحوار) فقد وردت كلمة (الجدل) في القرآن الكريم في سبعة وعشرين موضعاً، أما كلمة (الحوار) فوردت في ثلاثة مواضع، والحقيقة أن التوصيات الأخلاقية لا تقف عند حدود الجدل وأجواء الاختلاف مع الآخرين فقط، بل حتى في الدوائر الخاصة بالأقارب والأهل والأصدقاء، فالمزاح مثلاً لا يجوز فيه الاجتراء على الشخصية الممازحة بتوجيه الإهانة لها واستنقاصها؛ فيرد على المزاح بمثله فتتصاعد إثر ذلك المناوشات الكلامية فتنشأ حالة من التوتر والضغينة فيصبح المزاح ممارسة عدوانية أو سلوكاً غير سوي من الزاوية النفسية، ومعلوم للجميع أنه طالما استخدم المزاح في واقعنا الاجتماعي لتصفية الحسابات وإبراز الأنا الغالب المتضخم، ولا نقصد من ذلك منع وحصر المزاح، بل هي دعوة لكي نتأمل في(دوافع المزاح)، فإذا صدر بدافع الدعابة المهذبة التي تدخل السرور على الآخر فهي مرغوبة لأنها تحقق التواصل والحميمية مع الغير، وقد جاء في السيرة أنه كثيرا ما كان الرسول ﷺ يداعب ويدخل السرور على الصحابة وهكذا كان الصحابة الذين عرف عنهم الدعابة والبشاشة والطلاقة في الوجه وكثرة التبسم ويقول الإمام علي معززاً ذلك السلوك: "من كانت به دعابة فقد برء من الكبر".

وبمراجعة سريعة لكتاب ابن القيم الجوزية (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) سوف نلاحظ فيضاً جميلاً من الكلمات ودرجاتها والتي تزيد على الخمسين لكل منها معنى متدرج ورقيق حيث حاول (ابن الجوزية) جمعها ويأتي في طليعتها:

"المحبة، الود، الخلة، الرسيس، الهوى، الصبابة، الشغف، الوجد، الكلف، الجوى، الشوق، الغرام، العشق، الهيام، الوله...إلخ". هذا التقسيم للمفردات الراقية لا وجود له في اللغات الأجنبية حيث انفردت اللغة العربية بدقة البيان وإصابة المعنى وغنى المفردات. وقد علق أحد الأدباء: "لو اطلعت الزوجات في البلاد الأجنبية على جمال مفردات اللغة العربية وتقسيماتها من الحب لشاقهن أن يتعلمن العربية ليعرفن مواقعهن عند أزواجهن". ولم يكن تغزل العرب قديماً مقتصراً فقط على مظهر النساء وجمال أجسادهن فقط كما هو الحال في تفوق المرئي (الصور) على المعنوي، قال الشاعر العربي:

مهذبة الألفاظ مكية الحشا　　　حجازية العينين طائية الفم

الجانب الاجتماعي والجانب الوجداني:

يؤكد القرآن في العديد من الآيات على الجانب الاجتماعي في التعامل ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وهو يرتبها بالجانب الوجداني المتصل بالإيمان بالله الذي ألف بين القلوب؛ فلا يشعر الإنسان في طبيعته علاقته بأخيه المؤمن (غنياً أو فقيراً) بالجانب القانوني الذي يخضع لتوجيهات فوقية تأتي من خارج الذات، بل يلتمسه طبيعياً عفوياً تنساب وتندمج أبعاد سلوكه الاجتماعي بطبيعة الدوافع الخيرة لتلك العلاقة التي تستدمج رقي العلاقة بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية فيختزن التكافل والتماسك الاجتماعي ينابيع الروح الفياضة المقرون بمعاني المحبة والشفافية في نمط الاتصال.

ويمكننا التقاط ذكاء وروعة الموقف في كتاب (وفيات الأعيان لابن خلكان) بحيث نقدح عبق الماضي لنكشف ونبوح بذلك التناغم في ثنائية الاجتماعي المعلن والوجداني المخبأ في المشهد التاريخي التالي:

فقد ذكر أن أعرابياً وفد المدينة فسأل عن أكرم الناس بها فدل على الإمام الحسين سبط الرسول الأكرمﷺ فدخل المسجد فوجده مصلياً فوقف بإزائه وأنشأ:

لم يخب الآن من رجاك ومن	حرك من دون بابك الحلقة
أنت جواد وأنت معتمد	أبوك قد كان قاتل الفسقة
لولا الذي كان من أوائلكم	كانت علينا الجحيم منطبقة

قال: فسلم عليه الإمام الحسين وقال: يا قنبر هل بقي من مال الحجاز شيء؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار، فقال: هاتها فقد جاء من هو أحق بها منا، ثم نزع بردية ولف الدنانير فيها وأخرج يده من شق الباب حياء من الأعرابي وأنشأ:

خذها فإني إليك معتذر	واعلم بأني عليك ذو شفقة
لو كان في سيرنا الغداة عصا	أمست سمانا عليك مندفقة
لكن ريب الزمان ذو غير	والكف مني قليلة النفقة

قال: فأخذها الأعرابي وبكى فقال له الإمام الحسين: لعلك استقللت ما أعطيناك، قال: لا ولكن كيف يأكل التراب جودك؟

الفن الملتزم ونظرية الاستحمار

بالعودة إلى السنوات القليلة الماضية وعندما كان الوطن حاضراً، شعر الناس برغبة شديدة في تأجيج مشاعر الكرامة العربية؛ فاندلعت في حينها تساؤلات ورؤى جديدة في الشأن الثقافي والفني وكانت القضية مقدسة وتعيش في وجدان الناس؛ لذا انبثقت صيغة فنية ملتزمة تصالحت فيها الثقافة مع الحياة وانعكس ذلك الانسجام على الأمنيات.

العصر الراهن يتطلب من الفن أن يشترك مع الدوران المدهش في ذائقة الجمهور لكي يتمكن من (مسايرة) الفضائيات الحاضرة في كل شيء إلا فيما يخص هموم ومستقبل المواطن العربي! ما يجري في الفضائيات من انصراف تام إلى إعداد (ملكة الجمال) واستئجار فضائيات تعمل أربعاً وعشرين ساعة لرصد الآنسات في نومهن وقيامهن وأكلهن وأحاديثهن هو استدراج للوقوع في فخ السائد والسماح للمهنية العالية المستأجرة لكي تُرغم الجميع على استنشاق الهواء الموجع بلا قضية، بمعنى آخر أن نؤمن جميعاً بما سماه الدكتور علي شريعتي (نظرية الاستحمار)!

مع اندلاع "انتفاضة الأقصى" وتزايد حدة العنف الإسرائيلي ضد شعبنا الفلسطيني المظلوم اضطرت القنوات الفضائية العربية -على استحياء- إلى تحريك المؤشر، أو لنقل ضبط المؤشر (للأغنية السياسية والوطنية)

تأكيداً وتماشياً مع مشاعر الشعب العربي الغاضبة والمتضامنة مع القضية الفلسطينية، هذا الازدهار المؤقت في الكلمة الملتزمة المسموعة أثمر وأينع في مسألة مقاطعة البضائع الأمريكية في الشارع العربي لا سيما (البيبسي) والذي ينقل أن ترجمته (ادفع قرشاً كي تحمي إسرائيل) والقلم يتأوه على الطاولة بعيداً عن المعنى الحقيقي لهذا المشروب **(Pay Every Pence to Save Israel)**.

"الأغنية السياسية" في مرحلة ما ساهمت في دعم وتعميق الشعور الوطني عند الشعوب العربية، ومن خلالها تم تحريك الوجدان الشعبي الذي يواسي النفس ويبعث فيها طعم الحرية والنصر ويقدح باباً من الأمل أو على حد تعبير الشاعر محمود درويش (تربية الأمل).

الفن الملتزم في عراك دائم مع الترف الرخيص، وقد استفحل منذ علا دخان العولمة الرمادي وأخذ بالتطاير وتداخلت الأشياء حيث أشبع المكان بذراته فلم يترك فرصة لأي شيء آخر حتى اقتحم خصوصيات الشعوب المتألقة وبآلة عصية على الفهم تمكن من القيام بعملية خنق بطيئة للأعمال الفنية الملتزمة على كافة ساحات الوطن العربي.

هذا الانحسار في الفن الملتزم يجعلنا نفهم لماذا يعنون الناقد الإنجليزي جوليان سبالدنج كتابه بـ (كسوف الفن) حيث بدا له حال الفن المعاصر كحالة عتمة كسوف الشمس الذي شمل الأرض لا بالظلام وحده بل بالبرد ومشاعر النهاية الغامضة والصمت المخيف. وتجعلنا نفهم أيضاً لماذا يموت في الغربة الشاعر مصطفى جمال الدين ولماذا تتساقط دموع (مظفر النواب) ولماذا (حميد بن مسلم) كان يشهد مقتل الحسين دون أن

يحرك ساكناً؟ ولماذا لا تتحمل الثقافة الموبوءة وأنصار التطبيع ريشة الفنان التشكيلي الفلسطيني (ناجي العلي) حيث كان كل رسمٍ له عملية فدائية في تل أبيب! ولعل هناك شريحة أكثر تفهماً ودراية منا ومن القارئ!

إن أكثر الناس دراية بهذا الانكماش في حجم الإقبال على (الأغنية السياسية والوطنية) هم أصحاب محلات الكاسيت! وهم الترمومتر الحقيقي لقياس درجة السخونة والكاشفة أيضاً عن هبوط الاهتمام من قبل الشباب بالفن الجاد إلى ما تحت درجة التجمد؟! خصوصاً أن جورج بوش بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 بدأ يوظف الأغنية والأناشيد الدينية والسياسية في الكنائس مع أعوانه ويردد (نحن أمة واحدة تحت الله **One Nation Under God**) (نحن نثق في الله **We trust in God**) (ليبارك الله أمريكا! **God Bless America!**).

في كثير من الأحيان يتسرب الضحك من شدة الألم لمقارنة ومشاهدة الفن الذي يحتقر الفكر وكذلك في ظاهرة استشراء الأغنية الشبابية المدعومة من قبل التلفزيون وأباطرة الإعلام والذي رسم تياراً هادراً هابطاً بالذوق إلى بؤرة الرذيلة والشهوات في إيماءاته وتلميحاته. كانت هناك صورة أخرى ملازمة لهذه المقارنة وهي للفنانين الوطنيين (إمام ونجم) الفقيرين بحياتهما والأغنياء بمشاعرهما، ولعل أبناء هذا الجيل لا يعرفون الكثير عنهما، وبالأخص عن ذلك الفنان الضرير الذي عاش ومات في أحياء القاهرة ولم يكن من نجوم التلفزيون، ولا يستطيع هذا الجيل فهم ما يقول، (إيه يعني لما يموت مليون.. إيه يعني في العقبة جرينا.. ولا في سينا.. هي الهزيمة تنسينا.. إننا أحرار).

الأغنية السياسية في (هزائم الماضي) كانت تتولد من رحم الإحساس بالألم والوجع، ورغم الهجائية التي تقطر سخرية إلا أنها كانت تعلن وبكلمات حادة أن الهزيمة ابن شرعي للفساد وانعدام العدل، وفي الوقت نفسه كانت مسكونة بخصوصية تعمل على جذب الشارع وشحنه وإبقائه في حالة من التوتر المقصود.

(زهرة المدائن)، (أخي جاوز الظالمون المدى، فحق الجهاد وحق الفدى) وغيرها الكثير من لوحات ومشاهد وارتجالات راهنة تدخل الجميع في الآني والحاضر لكي يستشرف المستقبل، لكن غياب الظرف السياسي الملائم وغياب التطلعات والقوى الحاضنة لها جعل مشروع (الفن الملتزم) يتيماً بلا دعم وعزز ذلك مجيء حقبة الرؤية الرمادية للعولمة وانحسار الراغبين في ركوب المغامرة؛ فضاقت الأماكن الفسيحة وآثر الجميع (الهرولة) لتصبح (الأغنية الوطنية) في عهدة فنانات (الفيديو كليب) يهزهزن أردافهن الرشيقة ويغنين آخر الليل للسكارى!

في المرحلة الراهنة يراودنا بصيص أمل؛ ففي خطوة مسكونة بالجديد ومتمردة على الواقع المتعفن وافق المرجع السيد محمد حسين فضل الله (أستاذ الجيل الواعي) على تلحين ثلاث قصائد من مجموعته "قصائد للإسلام والحياة" يلحنها عبدالغني طليس على أن تقدم بأسلوب جديد للنشيد الديني على التأمل في الإنسان والحياة مستمزجة البعد الفني الإبداعي الذي يتوارى عن الاستهلاك الرخيص، وهي ليست الخطوة الأولى فقد وافق سماحة المرجع السيد فضل الله قبل عشر سنوات على تلحين ثلاث قصائد من المجموعة الشعرية عينها وقام (طليس) حينذاك بتلحينها.

القصائد الثلاث الجديدة بعناوين (عندما يكتب تاريخ الحضارة) و(رب مالي أبكي وما لي أغني) و(ثورة الحق). نعم هكذا يزيح سماحته الغبار عن الوعظ الفوتوغرافي ويفسح المكان للجميل المباح لكي يتحرك في الحاضر فلا يؤرق الأرواح الصالحة.

إن ما تبقى اليوم من نتاجات فنية وأدبية ملتزمة لم ينتشر بسبب نوعيته وتميزه الفني والتعبيري بل بسبب اندراجه تحت النصوص التي عبر عنها البعض بـ "أدب النوايا الطيبة" أي الأدب والفن الذي يصدر عن نوايا سليمة وطيبة وإن كان يفتقر إلى مقومات الإبداع. فسر نجاح وانتشار ظاهرة المغني (شعبان عبدالرحيم) يبرر ما ذكرناه آنفاً فالناس متعطشة إلى التعبير عن ذاتها في قبال التهميش الذي تتعرض له؛ فأصبح الجميع يردد (أنا بكره إسرائيل) وكذلك عندما قدم (شعبان) ملحمته الغنائية الشعبية والتي يلعب فيها الشهيد الطفل محمد الدرة دور البطولة وهو الرمز لمأساة أطفال العرب الذين ذبحوا بالآلة الصهيونية العاتية والتي يقول فيها:

لا رحموا دمعك ولا خوفك	وأنت حاضني قوي في إيدك
كان الرصاص أسرع مني	فارق الحياة وهو في إيديك
قتلوني يابه وأنا في إيدك	ابنك حبيبك ووحيدك
لا رحموا دمعك ولا خوفك	وانت حاضني كده في إيدك
الذنب مش ذنبك يا به	أنا وأنت وبلدنا غلابه
من الرصاص كنت أنا خايف	كان الرصاص جاي علينا
زي المطر شايفه علينا	مرعوبين وبنداري
حرام عليكم أنا إيه ذنبي	ليه الرصاص يسكن قلبي

وأمـوت في حضـن أبويـا قتيـل   يـا حبيبـي يـا ضي عينيـا
سـامحني أنـا مـش بإيـديا   قتلـوك في حضـني يـا حبيبـي
الكـل شـافك عـلى الشاشـة   أنـا بـس يابـه اللي شـاغلني
أن اليهـودي الـلي قتلنـي   كان نفسي أمـوت مئـة واحـد
وأكـبر وأدافـع عـن بلـدي   والناس تقـول شـوفوا الـدرة

أخيراً نقول: إن الوجع مرير ولكي نحقق مقولة جديدة (أعطني فناً ملتزماً، أعطيك شعباً). يجب حشد الجهود لكي نتجاوز الهنات والهفوات فنؤكد بذلك على دور الفن في بناء المجتمع وصياغة اتجاهات شبابية جديدة محرضة على الإبداع وحب الوطن بدلاً من وضع العصي في العجلات، فالوطن لنا أولاً وآخراً ولابد للكلمة الحرة من أن تأخذ دورها في بنائه مهما استعصت الأمراض والعيوب.

الكتابة على الجدران
(أداة للتنفيس أم وسيلة للاعتراض؟)

لن ينسى التاريخ فضل المصريين على الإنسانية في اختراع الكتابة، ولو لم يكتب القدماء الأوائل على جدران الكهوف لما استطعنا التعرف على مظاهر حياتهم السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية!

لكن الكتابة على الجدران في المرحلة الراهنة أخذت أبعاداً جديدة ومتناقضة، ويمكن ابتداءً التمييز بين نوعين من الكتابة الجدارية، الأولى هي تلك الكتابة الجدارية الموجهة أو الهادفة،- وسوف نتوقف عندها في السطور القادمة،- أما النوع الثاني من الكتابات الجدارية فهي تلك العبارات التي تكتب غالباً في الليل أو بتوقيعات رمزية وتأخذ أشكالاً عديدة، منها الذكريات والشتائم والتعريف بالمناطق وتأييد فرق كرة القدم والتعبيرات الجنسية الفاحشة والساخرة!!

الجدران دفاتر المراهقين:

في العديد من الدول الأجنبية لا ينظر إلى الكتابات الجدارية على أنها سلوك خاطئ أو شاذ!.. فالسلوك الشاذ يترتب عليه الملاحقة والتأديب، الملاحقة والمطاردة هما الامتداد الطبيعي لأنصار (التربية بالإهانة). نعم هكذا

تتعامل بعض العقليات المتخشبة مع قضايا الشباب. لكن بعض المختصين لهم رأي مغاير، كما هو الحال لدى علماء النفس في ألمانيا، حيث بشروا بعلم جديد أسموه (سسيولوجيا الحمامات - التواليت) فتحت هذا العنوان تمكنوا من دراسة فلسفة الكتابات الجدارية محاولين التوصل إلى استنتاجات تفيد في دراسة شخصية هذه الفئة من المجتمع وردود أفعالها تجاه الأزمة التي تتعرض لها في الحياة، فتكون هذه الدراسات بمثابة (ترمومتر) لقياس حجم معاناة هذه الفئة، كما يجد بعض الاختصاصين في تلك الكتابات مساحة من الحرية لا يتيحها أي منبر آخر، فهي في النهاية مظهر حضاري وديمقراطي؟

ما يعنينا في الحديث السابق ليس تأييد أو رفض (الكتابات الجدارية) ولكننا بهدف فهم الظاهرة والابتعاد عن القراءة السطحية للظاهرة حتى نعطي أنفسنا فرصة لرؤية مغايرة، فالأحكام الجاهزة والمعلبة والرمي بالحجارة لكل ما هو مختلف آخذ في الانتشار كالفيروس ولا يمكن إيقافه وهو في تقديرنا نوع من (الإيدز الاجتماعي)!!

نظرية التنفيس:

هناك من يعتقد أن الذين يكتبون على الجدران هم أشخاص غير أسوياء، إلا أن هناك من يعتبر تلك السلوكيات بمثابة نوع من الصراع ونوع من سوء التكيف مع حالة معينة، وأنهم غير قادرين على التعبير عن أفكارهم، والذي يكتب على الجدران في الأغلب لا يعرف أو يعي لماذا يفعل ذلك! فالكتابة وسيلة للتعبير عن المكبوت في النفس بمعنى أنها خاضعة لفرضية (التنفيس) التي صاغها (فرويد عام 1959م)، والنقطة الأساسية في نظرية (التحليل النفسي) هو التنفيس أي أن (الجهاز الميدو ليكي) الذي

تسعى فيه الطاقة للبحث عن شكل من أشكال التفريغ، ويذهب أصحاب هذه النظرية (نستدعي النظرية فقط لأنها من النظريات التي حاولت تفسير الكتابة على الجدران) إلى أن هناك نوعين من الدوافع الخفية هما: دوافع الأنا والدوافع الجنسية، بحيث تنبع الكتابات الجدارية من أحد هذين النوعين من الدوافع، وربما تكون نتاجاً لكليهما؟

تأسيساً على تلك الفرضية نقول: إذا كانت ظاهرة الكتابة الجدارية متعددة الدوافع والأسباب، فلماذا لا يعاد النظر في (المسوح الوطنية)؟ بمعنى أن المسح الوطني يجب أن يشمل خصائص الأسرة بحيث يتم التعرف على مستويات بعض الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسكانية التي تمس حياة الأسرة ومن بينها حاجات ومعاناة الشباب، وتأخر سن الزواج والطلاق والترمل والإنجاب وبر الوالدين والإعاقة والتسرب الدراسي وجنوح الأحداث ومعدلات الدخل والإنفاق ...إلخ، عوضاً من أن تكون "المسوح الميدانية" جهوداً ساذجة وأرقاماً بلا دلالات؛فنحن نعيش في عصر الإبداع وقلب الظواهر السلبية إلى معادلات نجاح وتنمية، ولعل الفتيات الجامعيات في لبنان قد تجاوزن الرؤوس الممتلئة بكثبان الرمال وأطياف البُعران حيث كان مشروعهن في التخرج كطالبات تصميم (الغرافيكي) في جامعة الكمبيوتر والإدارة عبارة عن مساهمة نسائية وطنية لتجميل (جدران) قرى الجنوب اللبناني المحررة من قوات الاحتلال!

المقاومة بالكتابة على الجدران:

الكتابات الجدارية لها دور وشأن آخر في الشارع الفلسطيني، ويطلق عليها اسم (صحافة الجدران) وتتناول كافة مجالات الحياة الفلسطينية،

ويغلب عليها الطابع السياسي الذي تعبر من خلاله القوى الفلسطينية عن آرائها ومواقفها كمقاطعة البضائع الإسرائيلية وكذلك العبارات التي تحث على مواصلة الصمود، بالإضافة إلى نعي الشهداء، وقد تحدث "محمد سليمان" في كتابه (إعلام الانتفاضة) عن سمات (صحافة الجدران) فقال: (تتسم صحافة الجدران بالإيجاز والبلاغة رغم قلة المحسنات اللغوية فيها بسبب مباشرتها التعبوية والترشيدية والإعلامية وعادة ما يستخدم فيها السجع) ويضيف صاحب كتاب أعلام الانتفاضة قائلاً: "مع أن كل الجدران بالنسبة للانتفاضة صفحات للكتابة، فإنها توزع بطريقة تتناسب مع هدفها، فشعارات المقاومة والصمود تتركز في الأماكن العامة، مثل أبواب المحلات التجارية وجدران البيوت، أما الشعارات السلبية والرسومات الرمزية لقيادة العدو فغالباً ما تكون على جدران المراحيض العامة أو حاويات القمامة، أما عن أهميتها فيقول: إن (صحافة الجدران)تعتبر من المواضيع الرئيسية التي تشغل بال الاحتلال حيث أصدرت إدارة الحكم العسكري عدداً من الأوامر العسكرية تصل العقوبة بموجبها إلى السجن لمدة (5) سنوات!

الثقافة الفرعية للشباب:

في علم النفس الاجتماعي يتكرر مصطلح (الاستهجان **reprobation**) بمعنى استنكار أفعال ومعتقدات الغير. هذا الاستهجان في تقديرنا ولدّ ما يعرف بالثقافة الفرعية للشباب، والذي يشير إلى (قدرة الجماعة على تطوير أنساق اجتماعية تلقائية تحقق لهذه الجماعة نوعاً من الحماية والمزيد من الإشباع النفسي) بمعنى أنه كلما اتسعت الهوة بين فئة الشباب

والمجتمع نتيجة غياب الأرضية المشتركة، والفهم المشترك كلما لجأت هذه الفئة إلى خلق مناخ توحد فيما بينها نماذج سلوكية وعادات ومصطلحات خاصة بها.

إذاً الكتابة على الجدران لغة خاصة بفئة الشباب، وظاهرة سلوكية عالمية، وسوف تستمر حتى لو عملت الدول والمجتمعات على رفضها كما هو الحال في المكسيك حيث توصل باحثون مكسيكيون إلى اختراع طلاء لا يمكن الكتابة عليه. والسؤال هل هذه الاختراعات الرسمية، وسياسة "الكرباج" تقود إلى المزيد من الفهم الحقيقي لفئة الشباب؟الحقيقة أن هناك عقليات (المطرقة) والتي لا تؤمن إلا "بالضرب" لذلك فهي تنظر إلى كل ظاهرة وكل مشكلة على أنها مسمار!!

القدرة على تشخيص مشكلات المجتمع

لو تم توجيه سؤال أو تمت عملية توزيع استبانة تتضمن الآتي: ما هي بنظرك أبرز أو أهم المشكلات الاجتماعية التي تواجه المجتمع؟ حتماً سيكون هناك تفاوت في الإجابات وفي "إدراك" المشكلات الاجتماعية بحيث لا تتطابق (الرؤية الذاتية) للأفراد وحقيقة المشكلات القائمة في الواقع.

لذا سنتوقف هنا عند إشكالية هامة وذات تأثير مباشر على مسيرة العمل الاجتماعي وعلى طريقة صيانة تنظيم المجتمع وكذلك على مهارة التشخيص في اكتشاف المشكلات الاجتماعية وتحديد "الأولويات" بما ينعكس على النجاح في عملية التخطيط الاجتماعي.

فالتوجهات المعاصرة في ميدان علم النفس الاجتماعي تركز على "الإدراك" في تكوين المشكلة الاجتماعية باعتباره من أهم العناصر؛ فإذا لم يشعر عدد كبير من أفراد المجتمع، بأن وضعاً ما غير مرغوب فيه أو أنه إشكالي فلا يمكن اعتبار هذا الوضع مشكلة اجتماعية وبحاجة إلى بذل جهود جماعية لحلها، فالوعي بوجود مشكلة شرط ضروري لاعتبار وضع اجتماعي ما وضعاً إشكالياً.

التطابق بين البعدين الذاتي والموضوعي للمشكلة:

على المستوى الشخصي لكل من الناس زاوية يرى الأشياء من

خلالها، فتارة يقوم الأشخاص بتقزيم وتحجيم الأمور، وتارة أخرى يقومون بالمبالغة والتضخيم للأشياء! فما يعتبر جميلاً بالنسبة لك قد يكون قبيحاً في نظر الشخص الآخر، وقد جاء في كتاب (الموشى) أو (الظرف والظرفاء) تأليف أبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى (الوشّاء) ما يؤكد هذا المعنى، حيث يروي أنه دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: والله يا بثينة ما أرى فيك شيئاً مما كان يقول جميل! قالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلّي بعينين ليستا في رأسك!! قال: وكيف صادفته في عفته؟ قالت كما وصف نفسه، حيث يقول:

لا والذي تسجد الجباه له ... ما لي بما دون ثوبها خبرُ

ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلا الحديث والنظرُ

حديثنا السابق يختصر المسألة في بعدها الذاتي والشخصي، لكن فهم وإدراك (المشكلة) الاجتماعية في بعدها العام يحدده علماء نفس الاجتماع باعتبارها هوة كبيرة بين المعايير الاجتماعية والواقع الاجتماعي أو السلوك الفعلي، بمعنى أنه وضع غير مقبول ولا بد من حشد الجهود الجماعية لإصلاحه ومعالجته.

تأسيساً على ذلك نقول هناك بعدان لأي مشكلة هما: البعد الذاتي الذي يستند إلى إدراك الناس وتقويمهم لوضع ما على أنه إشكالي أو ضار، والبعد الموضوعي الذي يستند إلى حجم وانتشار الوضع أو السلوك الفعلي الذي يجري تقويمه، لذا نلاحظ التفاوت الكبير بين الناس عندما يتحدثون عن حجم البطالة والعنوسة والانحرافات الأخلاقية وحوادث السيارات

والسرقات ونسب الطلاق والوساطة وغلاء المعيشة وتقليد الغرب وظاهرة الجنس الثالث والزواج بأجنبية والأمية والابتعاد عن الدين ...إلخ.

الوعي بوجود مشكلة:

إلى فترة وجيزة لم يجرؤ أحد في مجتمعنا أن يتحدث عن وجود ظاهرة الإدمان على المخدرات، ثم جاء الضوء الأخضر فتحدث من هب ودب عن الظاهرة إلى درجة أن أحد الفنانين في دول الخليج - وهو غير مؤهل للحديث عن قضية سلوكية- قام بكتابة النص ثم أخرجه ثم قام بتمثيله!! وفي مجلة عربية كتب أحدهم ماذا يفعل المدمن إذا لم يجد المخدرات؟ فتناول الكاتب ما يقارب من ثمانية عشر طريقة للشاب في حالة عدم وجود ما يشفي الغليل!!

ذلك التخبط في الحديث عن المشكلات الاجتماعية يقودنا إلى التوقف عند مسألة نظرية ومعقدة تواجه دارسي المشكلات الاجتماعية وهي: من الذي يحدد وجود المشكلة؟ وقد ناقش العديد من العلماء (دور العدد) في تحديد المشكلة ولم يصلوا إلى نتيجة نهائية، فالعديد من التعريفات تقول: إن المشكلة الاجتماعية وضع يرى عدد (كبير) أو عدد (بارز) من الناس أنه كذلك، لكن لم يتم التوصل إلى أي اتفاق كمي بخصوص تحديد هذا العدد، فهل المقصود أن يرى أكثر من 50% من الناس أنه وضع غير سوي؟ أم المقصود أن تصل النسبة 30% أو 20% أو أية نسبة أخرى؟ في الحقيقة لا تتوفر لدينا أو لدى غيرنا من الباحثين إجابة حاسمة!

ولا نرغب هنا أن نرهق ذهن القارئ، لكن هناك ثلاثة أركان للمشكلة الاجتماعية يمكن من خلالها التشخيص وأولها: وجود قيم

ومعايير يحترمها أفراد المجتمع، ثانياً: ظهور حالة تشكل انحرافاً عن تلك القيم والمعايير خلال فترة زمنية محددة، وأخيراً وهو الأهم: إدراك بعض أفراد المجتمع أن ظاهرة معينة قد جنحت عن الطريق السوي.

هل الكلمة النهائية للعقلاء:

لا يزال موضوع تشكل آراء الناس وتبلور قناعاتهم تجاه مسألة ما محل نقاش، خصوصاً ذلك الأثر الذي تمارسه وسائل الإعلام وقوتها في طمس أو إظهار المشاكل والقضايا ومن ثم إبرازها إلى السطح الاجتماعي، في هذه العملية الاتصالية الإعلامية يتبلور دور هام وخطير (للجماعة المرجعية) التي تتوسط العلاقة بين الناس ووسائل الإعلام.

بمعنى أبسط أنه كان هناك اعتقاد سائد بين علماء الاتصال (في الماضي) يقول بأن وسائل الإعلام تتعامل مع الأفراد بوصفهم أجزاء متصلين بوسائل الإعلام مباشرة وليسوا متصلين ببعضهم البعض، لكن الدراسات الحديثة أثبتت أن (لقادة الرأي) و(النخبة) في المجتمع دور يوازي وسائل الإعلام.

أهل الاختصاص يعرّفون (قائد الرأي) بأنه ذلك الفرد الذي يبذل جهداً للتأثير على الآخرين والذي يتلقى منه الآخرون المعلومة والنصيحة، أو أنه ذلك الشخص الذي يمارس التأثير على آراء الآخرين في مجال معين من خلال الاتصال الشخصي، هذا الطرح يتجاهل الطرف الثاني في العملية وهو (الجمهور) ويفترض أن الجمهور مجرد كائن مطيع لكل ما يتلقاه من قادة الرأي!! ثم جاءت أدبيات علم الاجتماع السياسي لتزيح اللبس والخلط

في مسألة التأثير على الناس وتقدم لفتات جميلة وجوهرية فيها يخص الفرق بين (مفهوم النخبة وقادة الرأي).

فالنخبة تمتلك مقاليد القوة بفضل قدرتها التنظيمية وتقديرها لمصادر القوة في المجتمع، وإن الضبط الذي تمارسه النخبة يعتمد على كونها قلة متماسكة تشكل جبهة قوية قادرة على التحدي، وتميز بعض الأدبيات بين نمطين من النخبة: النخبة الحاكمة التي تضم الذين يلعبون دوراً بارزاً ومباشراً في تشكيل السياسة العامة، والنخبة غير الحاكمة التي تتألف من الذين لديهم قدرات ومواهب خاصة ولكنهم ليسوا في مناصب رسمية أو مراكز صنع القرار، وهناك قول للإمام علي يحذر فيه من تأثير (البطانة) أو الحاشية الانتهازية على متخذي القرار: "اللهم ارزقني حظاً أستخدم به ذوي العقول، ولا ترزقني عقلاً يستخدمني به ذوو الحظوظ!". وهكذا يمكننا أن نستنتج أن توجه النخبة عادة ما يكون نحو السلطة والمشاركة في صنع القرار، بينما توجه قائد الرأي دوماً ما يكون نحو الجمهور.

في ختام هذه الوقفة التأملية وبعيداً عن لغة التلقين نطرح السؤال الافتراضي التالي: المشكلات تنقسم إلى ثلاثة أنواع باعتبار وجود جبل جليدي، فالنوع الأول: هو المشكلات الظاهرة وهي التي يكون الجبل فيها ظاهراً بكامله للجميع، أما القسم الثاني: فهي المشكلات البارزة والتي يبرز جزء منها لكن الجزء الأكبر من الجبل الجليدي تحت السطح، وأما القسم الثالث: فهي المشكلات الكامنة والتي يكون الجبل الجليدي بكامله تحت السطح، فمن الذي يقود عملية تشخيص المشكلات الاجتماعية المعاصرة بأقسامها الثلاثة؟ هل هم (قادة الرأي) أم (النخبة) أم (أن وسائل الإعلام)

هي التي توجه أنظار الجمهور إلى أوضــاع معينــة وبـذلك تســهم في تكـوين الإدراك الذاتي للأوضاع غير المرغوبة؟ الإجابة تحتاج إلى شيء من التـأني بـل إلى شيء من التعقل في التشخيص حتى نقـف عـلى أرضـية صـلبة في الرؤيـة ونمشي في طريق نهاياته واضحة؛ فإنـه في موطن العرجان يعتقد كـل واحـد أنه يسير مستقيماً!!

أمة لا تستيقظ إلا بسفك الدم!

العديد من الأمم تستنهضها وتحركها مؤشرات التخلف في الميادين الإنسانية المختلفة، في التربية والعمل والتعليم والصحة وغياب الممارسات الحقوقية والديمقراطية ولا يدخل مشهد الدم ضمن توابل التهييج، لا في مسيرة تنميتها ولا عندما تقرر أن يكون لها شأن في الفعل الحضاري!

نقوم في هذه السطور بمطالعة تقرير يزيد عدد صفحاته على (500) صفحة، ونقدم زبدة أو محصلة التقرير الذي لا يخلو من انتقائية مقصودة لبعض الأرقام في تقرير التنمية البشرية العربية لعام 2002م الصادر عن وكالة الأمم المتحدة للتنمية بالتعاون مع الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، فلعل في ثناياه ما يحرك ويشحذ الهمم! فقد بات "مدعاة للاستغراب والعجب أننا لا ننهض للنضال إلا إذا سقطت أوطاننا وارتفع فوق رؤوسنا علم أجنبي محتل، وأحاطت بنا قواته المحتلة!".

إن الهدف من "الانتقائية" هو "التذكير"، ومعلوم أن التذكير مبدأ قرآني. والهدف الثاني أن التقرير-وبغض النظر عن الملاحظات التي سجلت عليه- هو من التقارير المتميزة والشاملة لأحوال التنمية الإنسانية في العالم العربي وهو على عكس التقارير السابقة التي كانت تخص كل دولة عربية

على حدة بتقارير مستقلة إلى جانب ما يتضمنه من مقارنات بين منطقتنا وأقاليم أخرى في العالم.

والهدف الأخير من هذه الوقفة لفت انتباه المواطن العربي لأهم مؤشرات التخلف، فقد تكون هذه الوقفات مفيدة أيضاً للباحث والأكاديمي العربي في مجال الاستشهاد والتدليل أو التأمل وهي كما يلي:

1. يشير التقرير إلى أن دراسة أجريت على 192 دولة في العالم وكانت النتيجة أن الثروة الطبيعية (السيولة المالية) تساهم بنسبة 20% في النمو بينما تساهم الثروة المادية (التقنيات - آلات - معدات) بنسبة 16% وتبقى حصة الأسد للثروة البشرية أي 64%. الرأسمال الحقيقي - الإنسان.

2. يعاني 65 مليون عربي من الأمية (ثلثا هذا الرقم من النساء).

3. هناك (10) مليون طفل عربي في سن الدراسة الابتدائية (6-15) غير ملتحقين بالتعليم - وسوف يقفز هذا الرقم عام 2015م إلى 40 مليون طفل.

4. إن الإنفاق على التعليم هو إنفاق على الكم التعليمي وليس على النوع! وإن مخرجات التعليم لا تتناسب وخطط التنمية (حاجات السوق).

5. أقل من 1% فقط من المواطنين العرب يستخدمون شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت).

أقل من 2% من المواطنين العرب يملكون جهاز حاسوب (كمبيوتر). وهي أقل نسبة في العالم باستثناء أفريقيا.

6. الدول العربية لا تخصص أكثر من 0.5% من ناتجها القومي للبحوث والدراسات والباحثين وهي نسبة تعادل نصف المعدل العالمي.

7. إن النتاج الفكري والبحثي للباحثين العرب لا يستغل من قبل الدول العربية لتطوير صناعتها وزراعتها وإدارتها وبرامجها التنموية.

8. إن رؤوس الأموال المستثمرة في الغرب من ثلاث دول خليجية فقط تصل إلى أكثر من (1000) مليار دولار أمريكي.

9. إن نسبة البطالة في العالم العربي 15%من القوى العاملة، وهي نسبة تعادل ضعفي المعدل العالمي. فعدد العاطلين عن العمل في الوطن العربي يصل إلى 20 مليون نسمة.

10. إن مجموع الناتج المحلي (لجميع) الدول العربية (532) مليار دولار، وهو ناتج يقل عن الناتج المحلي لدولة أوروبية متوسطة الغنى هي (إسبانيا)! الفارق 60 مليار لصالح إسبانيا.

11. يحتاج المواطن العربي إلى (140) عاماً لمضاعفة دخله في ظل نهج النمو الحالي، بينما يحتاج المواطن في مناطق أخرى من العالم إلى (10) سنوات لمضاعفته.

12. إن الدول العربية لم تحقق إنجازاً واحداً يذكر على الصعيد العالمي خلال نصف قرن.

13. سيكون عدد سكان العالم العربي 459 مليون نسمة في عام (2020م) وهو اليوم (280) مليون نسمة.

14. يركز التقرير على ثلاثة محاور:

أ. الحرية؛

ب. المرأة؛

ج. المعرفة.

15. يوجد في مصـر (4) ملايين فتـاة عـانس تجـاوزن سـن الخامسـة والثلاثين ولم يتزوجن.

16. أشار التقرير إلى أن 51% من البالغين في الـوطن العـربي و45% من الشباب الأصغر سناً عبروا عن رغبتهم في الهجرة خارج أوطانهم.

17. يذهب التقرير فيما يخص الجانـب الفكـري للمشـهد العـربي أن العـرب يترجمـون سـنوياً 330 كتابـاً وهـو خمـس مـا تترجمـه دولـة واحـدة (اليونان).

18. إن الدين العام للمملكة العربية السـعودية يصـل إلى 649 مليـار ريال سعودي. وإن البطالة بين الشباب تقدر ما بين 20%-30% في الوقـت الذي وصل فيه حجم العمالة الأجنبية إلى (7) ملايين عامل أجنبي.

نجد أنه من الضروري أن نختم هذا النقد للواقع العربي الذي فضلـنا أن نقدمه بلغة الأرقام وهي لغة علمية ويمكن إهداؤه إلى متخذي القـرار في حكوماتِنا العربية وفي الوقت نفسه نقول: إن الأمل الكبير معقود عـلى ثقتنـا بقدرة شعوبنا على القيام بدور فاعل لتشـكيل إسـتراتيجيات عصـامية تمنـع التخلف وتحافظ على الهوية وتتجاوز نقاط الضعف.

أمراض القلوب أخطر من معاصي الجوارح

(قراءة نفسية ثقافية)

التعاليم الدينية تحث على العمل الجماعي والتعاون على البر والخير والتقوى، لكن التقاليد والواقع الاجتماعي تسير في اتجاه معاكس! كيف نفهم ونفكك الظاهرة؟

في البداية لا مفر من الاعتراف بأن العمل الجماعي لم يعد من القيم الاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا، وأن الفردية (حب الظهور) تعد سمة للعمل العام وهي آفة ظاهرة في مختلف الاتجاهات والأنشطة السياسية والثقافية والخيرية، وهي ليست محصورة في المؤسسات ذات الطابع الديني، بل إن الانقسامات في المنظمات الشيوعية والليبرالية يضرب بها المثل في المحافل السياسية وبمدى استشراء ظاهرة حب الزعامة والرئاسة. وقد أثار فينا روح المرح تصرف (ماوتسي تونغ) الزعيم الشيوعي الصيني الذي دعا جمعاً من المثقفين الصينيين وشجعهم على الجهر بآرائهم في عام (1975م) خلال حملة (دع مئة زهرة تتفتح) فصدقه المواطن المسكين المدعو (داي هوانغ) فعبر عن رأيه وجاهر به! وجاءت مكافأته سريعة: (21) سنة سجناً لإعادة تعليمه وتثقيفه عن طريق العمل!

ننجح كأفراد ونفشل كفريق عمل:

جاء في السيرة أن الرسول ﷺ أرسل سرية أَمّر عليها عمرو بن العاص ثم أرسل له ردفاً بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ثم قال له إذا وصلت إليه فأنت الأمير، فلما وصل أنكر (ابن العاص) ذلك وقال إنما أنا الأصل وأنت التابع والرديف فأجابه (أبو عبيدة): "سوف أطيعك ولو عصيتني" والتحق بالجند.

كان حرص (أبي عبيدة) على الجماعة أكبر من رغبته في منصب القيادة؛ وهذا يقودنا إلى التحفظ على مقولة بعض الغربيين أو حتى بعض المثقفين من أن العرب جيدون كأفراد ولكنهم فاشلون كفرق عمل وجماعات!

هذه الظاهرة ليست من (الأمراض الوراثية) التي تستعصي على العلاج، إنها ظاهرة لا تخص العرب والمسلمين وحدهم ولكنها مسألة ترتبط بالحالة الحضارية والثقافية السائدة في المجتمع. نعم هناك آليات محددة تضبط وتدفع الفكر، كما أن هناك أساليب إدارية تعمل على ترسيخ حالة إيجابية من الأداء الجماعي بدءاً بالانتخابات (الشورى) وانتهاءً بتداول السلطة أو ما يعرف في السلوك الإداري (بالدوران الوظيفي **rotation**) وإن الله سبحانه وتعالى لو شاء لخلق المجتمع الإنساني مثل مجتمعات النحل والنمل بحيث يحذف منها الوعي وينتشل منها الرغبات الذاتية. ولكن ميزة المجتمع الإنساني أنه يتطور نحو الأفضل وأحياناً نحو الأسوأ أي أن الطريق مفتوح للاحتمالين ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

قوة "نحن" بين الأسطورة والواقع:

تقول الأسطورة: (إنه كان بأرض "سكاوندجين" عند مدينة "داهر" مكان كثير الصيد ينتابه الصيادون، وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان فيها وكر غراب، فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره إذ بصياد قبيح المنظر سيئ الخلق، قبح منظره يدل على سوء مخبره، على كتفه شبكة وفي يده عصا، جاء مقبلاً نحو الشجرة فذعر منه الغراب وقال: لأثبت في مكاني وأرى ما يصنع! ثم إن الصياد نصب شبكته ونثر عليها الحب وكمن قريباً منها، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مرت به حمامة يقال لها "المطوقة"، وكانت سيدة الحمام ومعها حمام كثير فعميت هي وصاحباتها عن الشرك فوقعن على الحب يلتقطنه فعلقن في الشبكة جميعاً، وأقبل الصياد فرحاً مسروراً فجعلت كل حمامة تتلجلج في حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها فقالت المطوقة: لا تتخاذلن في المعالجة ولا تكن نفس إحداكن أهم إليها من نفس صاحبتها ولكن نتعاون جميعاً ونطير كطائر واحد فينجو بعضنا ببعض فجمعن أنفسهن ووثبن وثبة واحدة فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن وعلون في الجو).

أسطورة جميلة ونموذج متميز لقوة عمل الجماعات ونجاح المجتمعات، وكما نفعل في قاعات التدريب حيث نستدعي النظرية (المثال والنموذج) نستدعي أيضاً (الواقع) فتكون قاعة التدريب همزة وصل بين النظرية والواقع إنه عمل إبداعي لذيذ. تلك الأسطورة (الحمامة المطوقة) متلازمة مع مقاربة واقعية طالعناها في كتاب المرحوم الشيخ محمد الغزالي (الحق المر) في الجزء الأول حيث يقول: (زرت مسجداً في باريس وألقيت

فيه عدة محاضرات وتحدثت مع رواده ودرست بعض قضاياهم، وكونت فكرة مجملة عن شؤونهم المادية والأدبية، وعندما نظرت إلى صفوف المصلين وأنا أخطب الجمعة أحسست أن سوادهم من هذا الصنف الذي قيل فيه إذا حضر لم يعرف وإذا غاب لم يفتقد.. إنهم صورة نبيلة لجماهير المسلمين المحبين لدينهم الحريصين على إحياء شعائره وإضاءة منائره "ولكنني لما درست أحوال بعضهم مسني الضر ـ وشعرت بالقلق إنهم ينتمون إلى جمعيات شتى وينتشر بينهم خلاف وجدال عميق.. وقال لي صديق: ليس في كثرة الجمعيات ضرر. قلت: لو كان التعدد نوعياً لهان الأمر.. هذه لتعليم اللغة العربية وهذه لرعاية الشباب وهذه للرياضة البدنية وهذه لتيسير الزواج بين المغتربين والمغتربات وهذه للرحلات في الداخل والخارج وهذه لدراسة شبهات المبشرين والمستشرقين وهذه لزيارة الأحزاب والمؤسسات الفرنسية.. إلى آخره، هذا مطلوب ومندوب، أما انقسام هذه الطائفة الإسلامية المحددة إلى سلف وخلف وحركيين وصوفيين ومالكيين وحنفيين وشيعة وسنة وأعراب وأعاجم.. فهذا بلاء مخوف العواقب، ولئن كان كامن الشر اليوم فربما أودى بالجميع غداً، لقد حذرت وما زلت أحذر من نقل العلل القديمة إلى هذا المجتمع الجديد، اعرف أن الأوروبيين تشيع بينهم شهوات منكرة، لكن هذه الشهوات أقل فتكاً بالأمم من حب الرياسة وطلب الظهور وتحول الناس إلى شراذم يقودها أمكرها وأضرها.

وقد قال لي صديق: كان هناك خمسة أشخاص يريدون تكوين جمعية.. قال أحدهم: أنا الرئيس العام، وقال الثاني: أنا نائب الرئيس العام، وقال الثالث: أنا الوكيل العام، وقال الرابع: أنا المراقب العام.. قلت يجب أن يقول الخامس: أنا العضو العام!!). انتهى كلام الشيخ.

كيف يتسلل الشيطان للصالحين؟

سئل (تشاوسسكو) قبل انهيار نظامه ومقتله بستة أيام عن رياح التغيير في العالم وأثرها على بلاده فقال: عندما تثمر شجرة الصندل تيناً عندها تتغير الأوضاع في رومانيا!!

(تشاوسسكو) مثال واضح وصارخ للشخصيات (الديكتاتورية) وكذلك (هيلا سلاسي) و(بوكاسا) آكل لحوم الأطفال و(شاه إيران) الذي باعته أمريكا بنصف دولار!! وفي العالم الثالث الأرضية خصبة لإنتاج أمثال هذه النماذج بل إن أصغر مدير لدينا يستطيع وبكل بساطة أن يؤلف كتاب (الدكتاتورية للمبتدئين)!! لكن السؤال: كيف يأتي الشيطان للصالحين والمتدينين وأصحاب الأخلاق العالية؟

كيد الشيطان يلاحق الفاجر والمتدين وقد كان وعد الله الجنة لمن يتصدى لأعماله فلا يوجد بشر لا يزار من قبل الشيطان أو لا توسوس له النفس الأمارة بالسوء! إذاً لكان من الملائكة ويجب أن يعيش في السماء!

الإنسان المتدين وصاحب الأخلاق العالية لا يشرب الخمر ولا يزني ولا يترك الصلاة، ويستطيع أن يهزم الشيطان في معاصي الجوارح، ولكن الشيطان يتسلل له عبر أمراض القلوب (الحسد - حب الرئاسة - التكبر - الحقد - الغيرة - النميمة ...إلخ) لذا يذهب بعض العلماء إلى: أن أمراض القلوب أخطر من معاصي الجوارح.. ولا شك أن علاجها أصعب، بل إن اكتشافها أكثر صعوبة، فمعاصي الجوارح مكشوفة غير مستترة!!

الخطورة في أمراض القلوب أن لها آثار في الخارج، بمعنى أن ثمرتها ونتائجها تنعكس على سلوك الإنسان وتعامله مع الناس، فقد يسيء لهم

أو يؤذيهم مادياً أو معنوياً وهو مالا يغتفر، وبين أيـدينا وثيقـة تربويـة هامـة قدمها الإمام علي حيث صنف أنواع الظلم إلى ثلاثة أصناف ويعتبر أن ظلـم الناس هو الظلم الأخطر بعد الشرك بالله تعالى يقول: "ألا وأن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغتفر وظلم لا يترك وظلـم مغفور لا يطلـب، فأمـا الظلـم الـذي لا يغفر فالشرك بالله.. وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسـه عنـد بعـض الهنات وأمـا الظلم الـذي لا يترك فظلـم العبـاد بعضـهم بعضـاً القصـاص هناك شديد".

إننا بحاجة إلى فن جديد نستطيع من خلاله تأمل ورصد تلك المسـافة الصغيرة بين كلمـة (أنـا) وكلمـة (نحـن)، لـيس في بعـدها اللغـوي بـل في مضمون حركتها على الواقع. فهناك أشياء صغيرة وبسيطة لكنهـا عظيمـة في قيمتها وتميز سمات الأفراد وتبرز ملامح الشعوب فليس كل مـا هـو صـغير يعني عدم الأهمية! ولنا في قصة موت نبي الله سليمان عبرة؛ فلم يخطر في بـال الجن والعفاريت أنه مـات والـذي لفـت نظـرهم إلى موتـه كانـت حشـرة (صغيرة) لم ينتبه لها أحد فقد أكلت عصاه التي كان يتكـئ عليهـا فانكشـف سر موته!!

تصميت النساء

إذا تحدثنا عن التصميت فإن حقوق المرأة العربية في المشاركة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من المسكوت عنها تحت ضغوط فزاعات "الخصوصية"، ولنا الحق في الاعتراض على مقولة (السكوت من ذهب) وإن كان الموروث لا يقاوم لأنه متجذر في اللاوعي الجماعي حتى قيل إن صمت الفتاة العربية دال على الموافقة بعكس صمت فتيات الجيبو الهندية، فالصمت هناك يمثل عنواناً صارخاً للرفض في حال تقدم عريس للزواج منهن! ومعلوم أن الساكت عن الحق شيطان أخرس!

لن نبحر عميقاً في فلسفة الصمت، فلو كان الصمت من ذهب فما هو السر في كل هذا العدد الكبير من الفقراء في وطننا العربي (الأغلبية الصامتة)؟ نعم هناك فريق لم يتحدث عن حبس النساء في البيوت ولكنه حلق في رحاب الماضي (العفة التاريخية) فتحدث عن دور المرأة تاريخياً وأن المرأة كان لها دور في ساحات الجهاد ومجالس العلم وتمارس دورها في المساجد والأسواق وفي مجالس التشاور فيما يهم أمور المسلمين، إن صورة طالبان السياسية في مسألة التعامل مع المرأة لا تختلف كثيراً عن صورة طالبان الاجتماعية في وطننا العربي، لذا ليس من المناسب السكوت عن عدم

إشراك المرأة في التنمية، وفي الوقت نفسه لا يجب أن نحلق في أجواء التاريخ والماضي دون ملامسة أو على أقل تقدير محاولة تشخيص الواقع. وسوف نتعرض لجانبين في قضية مشاركة المرأة: الجانب الأول يتصل بتهميش دورها وما يترتب على ذلك التهميش من سلوكيات استهلاكية، والجانب الثاني يتعلق بمحاولة المرأة الدخول في مشروع المشاركة والبناء وطبيعة التشوهات التي فرضت عليها عندما اقتحمت ميدان العمل.

ملامسة الواقع:

يقول أحد الحكماء: "إذا اتفق اثنان في كل شيء فمعنى ذلك أن أحدهما هو الذي يقوم بكل التفكير!!". إنها ليست تحريضاً على الاختلاف، لكننا لا نميل إلى تقديم تصورات معلبة للقارئ، بل إن فعل الشراكة في التفكير هو في تقديرنا عملية ناضجة لإثارة الوعي والحفر بعمق في تفكيك القضايا، فالجميع يلاحظ أنه يعمل في دول الخليج بحر من الجنسيات وبثقافات تنتمي لأكثر من (120) دولة وهي عولمة واختلاط لا تجده حتى في الغرب! لقد قرأنا في شوارع لندن بعض الشعارات المحافظة والتي تتوجس من الآخر الوافد كان من بينها (**New Danger, New Labor**)، في بريطانيا العمالة الأجنبية تمثل خطراً جديداً!

الخليج تزدحم في أسواقه البضائع الأجنبية والعمالة الوافدة من كل أرجاء الدنيا، ومجتمع الخليج تتفاعل فيه (يستقبل ويرسل) عبر الحوار الثقافي الجديد (الإنترنت) و(الفضائيات) ما لا يعد ولا يحصى، فالخليج أكبر مستخدم للإنترنت والبريد الإلكتروني، وأهله يسافرون أكثر من غيرهم

إلى أرجاء المعمورة ويختلطون بثقافات مختلفة ومتنوعة، إذاً لماذا تتعطل مشاركة نصف المجتمع (المرأة) في النهوض بالتنمية والاقتصاد؟

إذا انتقلنا من العام إلى الخاص نقول: إن هناك قواسم مشتركة بين مجتمعنا العربي وبين مجتمعنا الخليجي وبالتحديد مجتمعنا السعودي، لكن هناك فوارق أيضاً ضمن المجتمع العربي، فعلى سبيل المثال يشير تقرير التنمية الصادر عن وكالة الأمم المتحدة إلى أن هناك أقل من 2% من المواطنين العرب يملكون جهاز حاسوب (كمبيوتر)! هذا الرقم بالتأكيد لا ينطبق على مجتمع كالسعودية مثلاً وكذلك الحال فيما يخص مستوى تعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العامة ...إلخ.

التهميش وسلوكيات الاستهلاك:

هناك مثلاً ملايين الفرص في السعودية مشغولة حالياً برجال أجانب وبالإمكان منحها لسيدات سعوديات؛ خصوصاً وأن التقارير الرسمية تفيد أن برامج السعودة (الذكورية) لم تحقق الأهداف المنشودة! في الوقت الذي بلغ فيه الدَّين العام للمملكة العربية السعودية 649 مليار ريال سعودي وبلغت نسبة البطالة بين الشباب ما بين 20- 30% بينما يحتل مواقع العمل جيش من العمالة الأجنبية يصل إلى (7) ملايين عامل أجنبي، ومن المفارقات العجيبة لهذه الإشكالية المضطربة أن بعض المدخرات النسائية في البنوك والتي تقدرها جهات رسمية بـ (15) مليار ريال غير موظفة في قنوات استثمارية! (رسالة المعهد، العدد 26 يونيو 2003م).

إن إشراك المرأة في عملية بناء الوطن في دول الخليج العربي مثلاً لا يعني في تقديرنا (التوظيف) فقط بل يتعداه إلى دراسة بناء العائلة

ومحاولة التخلص من سلوكيات معيشية باذخة فرضت نفسها مع طفرة النفط وما تزال قائمة، فالعديد من الدراسات تشير إلى انخفاض متوسط دخل الفرد السعودي حيث وصل في بداية الثمانينيات إلى ما يزيد على(20) ألف دولار ولكنه انخفض الآن إلى 7900دولار سنوياً! الطفرة النفطية على امتداد الخمسة والعشرين سنة الماضية لم تفرز جيلاً يستطيع التحكم بسلوكياته المعيشية بحيث تورطت غالبية العائلات السعودية في العيش بأسلوب لا يتناسب مع دخلها الشهري، حيث لجأت شريحة عريضة من الناس إلى البطاقات الائتمانية والقروض المصرفية!

المقولة الشعبية (القرش الأبيض لليوم الأسود) لا تحظى بقبول كبير في معادلة جديدة للتعايش مع شح الموارد المالية وتدني مستويات الرواتب، بل إن هناك مجاملات اجتماعية موروثة ومفاهيم قبلية وعشائرية للضيافة والولائم المرهقة مندمجة في خلطة سرية عجيبة مع عادات جديدة مكتسبة كهدايا أعياد الميلاد وذكرى الزواج وعادة السفر السنوية ...إلخ.

محاولة المشاركة وتشوهات الدور:

تلك التحولات الاقتصادية السريعة التي لا تتناسب مع التغير الاجتماعي البطيء في حركة ومكانة المرأة إضافة إلى تقلص الهامش المتاح للسيدات السعوديات في ممارسة نشاطات اجتماعية أو رياضية أو ترفيهية على غرار تلك المتوفرة لدى مثيلاتهن من النساء في الدول العربية وحتى في دول الخليج الأخرى جعلت شريحة من النساء السعوديات تلجأ إلى عادة التسوق في المدن وكأنها عيادات نفسية مجانية تظهر حالات كبت ناتجة عن مشكلات في محيطهن الدراسي أو العائلي أو بسبب البطالة.

هذا السلوك الاستهلاكي يتم بمعزل عن هموم رب الأسرة المشغول بدوامة توفير لقمة العيش ومصاريف العلاج وتكاليف التعليم والسكن. هذه الشريحة من الطاقات الشابة النسائية قد تتحول إلى رموز اتكالية تتقاسم دخل الأب في حين كانت النساء السعوديات قديماً في حالة عطاء باعتبارها تمارس التجارة داخل الأسواق أو على أطرافها حتى صدرت قوانين تنظيمية أجبرتهن على الابتعاد عن ساحة العطاء فتحولت الأسواق عند بعض العناصر النسائية من مواقع للشراكة في (صناعة الرغيف) إلى مواقع (الاستجمام والرفاهية) في مراكز الخمس نجوم المزدحمة بالمقاهي والمطاعم والباعة (رجال بالتأكيد) وافدون من كل أنحاء العالم، بحيث تتهيأ بيئة لاختلاط الجنسين لا تتوفر خارج هذه المراكز.

لكن هذا الدور الهامشي للمرأة قد لا يستمر وفق معطيات الظروف الحالية بل إننا نستشرف في كيان المرأة السعودية (مارداً) من وراء قضبان يرغب أن يعبر عن ذاته ووجوده. رغم أن المجتمع السعودي له تحويرات جذريه في تركيبته الاجتماعية تنفرج بمقدار في حال نشوء ظروف معينة! على سبيل المثال عندما زادت الضغوط المالية على رب الأسرة أدت تلك الضغوط إلى رفع (الفيتو الاجتماعي) على عمل الفتيات في مهن كانت مرفوضة في زمن الطفرة (كالتمريض). كما بات مألوفاً الآن خروج الزوج مع زوجته إلى العمل صباحاً لتشارك في تغطية المصاريف اليومية، كما ظهر تحالف جديد بين الزوجين في ادخار جزء من رواتبهما الشهرية لشراء أرض أو منزل بالتملك نقداً أو بالتقسيط.

كذلك تبدّلت مكانة المرأة السعودية بعد استقلالها الاقتصادي

ودخولها مهنة التعليم، فقد ارتفعت أسهم المعلمات والموظفات في بورصة المجتمع المنهك اقتصادياً. كما أن قلق رب الأسرة المنتمي إلى طبقة محدودة الدخل والذي يزحف على وجهه كل صباح ويحبس أنفاسه لكي لا يتعرض إلى انتكاسة صحية هو وأسرته أو أن يطاله حادث سيارة مفاجئ، كل ذلك دفعه إلى قبول مبدأ (التأمين) ضد الحوادث العارضة بعد أن كان الفكر التأميني معتقلاً ويخضع لحراسة شديدة عند معظم السعوديين! وقد تبشر الأيام القادمة بانفراج في أعمال معينة للمرأة كالفندقة والسفر والسياحة وأعمال السكرتارية والمكاتب الهندسية وتصميم الديكور ...إلخ.

إلى من تتجه أصابع اللوم؟

عندما تتحول غالبية أفراد الأسرة إلى عناصر اتكالية تتقاسم دخل رب الأسرة وتكون ثقافة المجتمع متورطة بتخريج المرأة (كائناً مستهلكاً) وهو تعطيل لطاقة نصف الأمة إلى جانب هيمنة تقاليد عشائرية ترهق ميزانية الأسرة وتسلب (15) في المئة من دخلها السنوي لتغطية المجاملات الاجتماعية الإلزامية؛ فإن ذلك بحاجة إلى مشروع ثقافي متكامل تقوده مؤسسات مدنية ورسمية أيضاً.

المشروعات الثقافية قد تنطلق من رحم المجتمع أو من خلال المؤسسات الرسمية، فقد لا يعلم البعض أن في فرنسا وزارة اسمها (وزارة أوقات الفراغ) كانت قد أنشئت لها في مختلف المدن مكاتب تشجع أنواعاً متعددة من الأنشطة الهادفة لإعادة بناء شخصية المواطن والمواطنة، وأنه قد صدر عام 1970 ميثاق الفراغ الدولي في جنيف بعد مؤتمر اجتمعت فيه (16) دولة وتأسس "الاتحاد الدولي لأوقات الفراغ" ومقره في نيويورك.

إن رفع مستوى ثقافة ومعيشة المواطن مسؤولية الجميع، ماذا لو أن (وزارة الصحة) قامت بواجبها وقدمت خدماتها بشكل متكامل ووفرت لكل أب ما يعادل (20) في المئة من دخله الشهري الذي يذهب للمستشفيات والمستوصفات الخاصة؟ وكذلك (إدارة المرور) من خلال زيادة الرقابة وضبط حوادث السيارات، وينطبق ذلك على بقية المؤسسات والوزارات.

ماذا ستفعل الجهات الرسمية بعد تعثر برامج السعودة (الذكورية)؟ وبعد ظهور ملامح جديدة لأنماط اجتماعية مزدوجة؟ فهناك ظاهرة (الزوجة الأب) حيث تتكفل الزوجة الموظفة بتكاليف مصروف العائلة وتتورط الموظفة أو المعلمة بأقساط شهرية لسداد قيمة قروض سيارة ودفع رسوم أكثر من جمعية؛ فتكون الزوجة بمثابة (محفظة مالية) يحقق الزوج من خلالها أحلام الفيلا الواسعة والسيارة الفاخرة! وماذا عن ذلك الأب الذي يعمل في الصباح (مدرساً) وفي المساء سمساراً لبيع السيارات في الساحات العامة؟ وماذا يفعل ذلك العسكري الذي يضطر للعمل كسائق أجرة لتدبير قوت عياله ومستلزمات حياته (الشرطي السائق)؟

إذاً هناك أدوار اجتماعية جديدة (الزوجة الأب) (الشرطي السائق) ...إلخ، وقد تنبئ الأيام القادمة بأدوار جديدة، نأمل أن لا تصل إلى بعض التخصصات الهامة، والقارئ ذكي ويستطيع أن يحرك السؤال لكي يستشرف المستقبل.

هذا الوضع في تداخل الأدوار الاجتماعية يذكرنا بأحد الطفيليين الذي نظر إلى قوم ذاهبين، فلم يشك أنهم في دعوة إلى وليمة فتبعهم فإذا

هم شعراء قصدوا السلطان بمدائح لهم فلما أنشد كل واحد شعره ولم يبق إلا الطفيلي وهو جالس ساكت فقال له السلطان: أنشد شعرك قال: لست بشاعر قال السلطان فمن أنت؟ أجاب: من الغاوين الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعر!

تماسك الأسرة يعني تماسك المجتمع

(ثلاثة عناصر هامة لتحقيق تماسك الأسرة)

بعد تحرير الكويت في حرب الخليج الثانية، قام الرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) بزيارة للكويت، وسجل مشاهداته الاجتماعية هناك، حيث أعرب حينها عن إعجابه بظاهرة التماسك الأسري في الخليج، وكيف أن الأسرة بكاملها تخرج في سيارة واحدة! بينما العائلة في أمريكا مفككة، فالأب له سيارة والأم كذلك، والمراهق والمراهقة يبدأ كل منهما بالتفرد والانفصال التام عن العائلة بمجرد الوصول للسن القانوني!

نحن لسنا بحاجة إلى أن يذكرنا (جورج بوش) بمناقبنا ومحاسننا التي تشكلت عبر قيمنا الإسلامية، لكنها قراءة لمشهد اجتماعي ينبغي الحفاظ عليه.

في هذه السطور نستعرض أهم ثلاثة عناصر قمنا بتناولها في إحدى اللقاءات الثقافية وكانت تتعلق بتحقيق الانسجام بين الزوجين، وقد علق أحدهم ذات مرة أنه كلما طرأت مسألة أو شأن أسري كلما سارعت إلى تذكر ومراجعة العناصر الثلاثة وأقبلت على تنفيذها وغالباً ما كان يرجع الود والصفاء إلى مجراه الطبيعي.

إن أول عناصر التماسك داخل الأسرة هو القدرة على (فهم النفسيات)، بمعنى ضرورة أن يفهم كل طرف الأرضية النفسية التي يقف عليها كل إنسان (الرجل - المرأة)، فعلى سبيل المثال: المرأة تميل بطبيعتها إلى الرقة واللين وتجاذب أطراف الحديث مع شريك حياتها، لكن جهل الرجل بهذه الطبيعة قد يترتب عليه قسوة المعاملة لاعتبارات قد تكون مخالفة لأقوال الرسولﷺ: "خيركم خيركم لأهله...". والمؤسف أن هناك ثلة من الرجال يمارسون نقيض هذه الوصية! فيكون أحدهم بين أصدقائه ومعارفه وزملاء العمل طيب المعاملة ويريهم من وجهه كل بشاشة ولطف ومن لسانه أعذب الكلمات، فإذا عاد إلى منزله تجهم منه الوجه وكسا نفسه برداء الهيبة وحبس حديثه في نطاق الجد ولم يتكلم إلا بمقدار! وقد يكون العكس صحيح.

ونستدعي مثالاً آخر لمسألة (فهم النفسيات) وهو يرتبط بما أثبته العلم من أن المرأة لديها القدرة على التجديد والابتكار أكثر من الرجل وذلك بحسب تقسيم المخ إلى أيمن وأيسر، ومعروف أن المرأة تميل إلى استخدام الجزء الأيمن من عقلها وهو الجزء الخاص بالإبداع والقدرة على التغيير والابتكار والتخيل. لذا قد تواجه المرأة التي تميل إلى التجديد وكسر الروتين في الحياة الزوجية إلى سوء الفهم من قبل الزوج أو ضعف الإقبال على الجديد مما يترتب عليه عدم استمرار هذا السلوك الحسن، هنا وجب على كل طرف أن يقرأ التجديد قراءة صحيحة وأن ينظر إلى الأصل في التجديد والدوافع الكامنة وراء محاولات التجديد لأنه سوف يكتشف أنها رغبة صادقة من أحد الطرفين لخلق أجواء من السعادة الزوجية.

هناك طرفة جميلة حول التجديد في الحياة الزوجية تقول: إن هناك زوجاً يبلغ من العمر (60) عاماً وله زوجة تبلغ من العمر (55) عاماً وقد فكر الزوج يوماً في تجديد حياتهما الزوجية فقال لزوجته: تعالي نلعب دور الخاطب والمخطوبة ونتواعد على الالتقاء في الحديقة عند الساعة الحادية عشرة مساء، في الوقت المعين تهيأ الزوج وذهب لشراء باقة ورد ووقف ينتظر خطيبته والمؤسف أنها لم تأتِ فجلس ينتظرها حتى الساعة (12) ليلاً ولم تأتِ عندها شعر الزوج بعصبية وانزعاج شديد تجاه زوجته لأنها لم تأتِ بحسبَ الاتفاق؛ فرجع إلى المنزل ورآها جالسة بكل هدوء، فسألها عن سبب عدم مجيئها. عندها قالت وهي تبتسم: أنت تعلم أن أمي لا تقبل أن أخرج لوحدي في الليل! في هذه اللحظة علت الضحكة وساد جو من المرح بين الزوجين.

أما العنصر الثاني من عناصر تماسك الأسرة فهو يتصل بإدراك آفاق ومتعة مسيرة الحب والوفاق الزوجي القائم على (الحوار). إن (الحوار) في الحياة الزوجية يمثل حجر الأساس في التفاهم وإذا انعدم الحوار بين الزوجين فإن ذلك يعني إقامة حواجز وسدود مما يجعل البيوت أشبه بمقبرة أحياء، ظاهر الأسرة التماسك وباطنها الصمت والعزلة، والحقيقة أن هناك العديد من الدراسات التي تقول أن 85%من المشاكل العالمية سببها انعدام الحوار.

إن الحوار بين الزوجين يساعد على طرح الأمور الخلافية البسيطة على طاولة النقاش والتحدث عن الإيجابي والسلبي ومن ثم التوصل إلى قناعات وحلول مشتركة. ومن الخطورة أن تطول فترة (عدم الحوار) لأن

طول فترة الصمت تبعث على الجفاء، وقد يتطور الأمر تدريجياً فيخصص كل من الزوجين غرفة نوم خاصة به وتعيش الأسرة في حالة من (الطلاق العاطفي)[1]. وهنا تكمن الخطورة على مستقبل العلاقة ومستوى الود والحميمية بين الطرفين، فإذا كانت الدراسات العلمية تقول أن المرأة تتحدث في اليوم الواحد بمعدل (13) ألف كلمة والرجل بمعدل (8) آلاف كلمة فإن غياب الحوار وطول فترة الصمت والخصومة يعني كبت هذه الطاقة، والسؤال: أين ستذهب هذه الطاقة؟ حتماً ستذهب إلى حوار نفسي داخلي سلبي تجاه الطرف الآخر، أو أن هذه الطاقة ستذهب إلى الخارج (الأصدقاء، الزملاء، الأهل) مما يعني فتح ثغرة في جدار وبناء هذه الأسرة.

إن للحوار شروط وضوابط، وعدم الالتزام بها يؤدي إلى قتل الحوار قبل بدايته؛ لذا يجب أن نهتم (بثقافة الحوار) ويجب الابتعاد عن النقد الجارح أو تحميل الطرف الآخر كامل الخطأ أو المطالبة بالاعتذار أو تضخيم القضايا أو اجترار السوابق. كما نوصي بأن لا ينتهي الحوار على طريقة (ماوتسي تونغ) الزعيم الصيني الذي دعا جمعاً من المثقفين الصينيين وشجعهم على الجهر بآرائهم في عام 1957 خلال حملة (دع مئة زهرة تتفتح) فصدقه المدعو (داي هوانغ) فعبر عن رأيه وجاهر به؛ وجاءت مكافأته سريعة: (21) سنة سجن لإعادة تعليمه وتثقيفه عن طريق العمل! فهل سيسمح الأزواج للحوار أن يتم على طريقة (ماو)؟

العنصر الثالث والأخير في عملية الحفاظ على بناء أسرة سعيدة

---

[1] تحدث الكاتب عن ظاهرة الطلاق العاطفي في استضافة إذاعية بعنوان: "الجريمة في سن مبكرة. الأسباب وطرق العلاج".

ومتماسكة هو عنصر (التضحية). ولعل فكرة التضحية من الأفكار التي لا تلتقي مع مكونات البناء الأسري في المجتمعات الغربية. والسبب معروف للكثير من الأشخاص الذين عاشوا في الدول الغربية؟ ونحن ممن عاش هناك فترة من الزمن ولاحظ طبيعة العلاقة بين الزوجين.

إذا نظرنا إلى طبيعة البناء الأسري في الغرب فسوف نلاحظ أنه يقوم على فكرة المساومة في الحقوق (Compromise) بمعنى أن الزوجة لها حقوق مدنية كفلتها المؤسسات المدنية وكذلك الزوج. فالتضحية في مفهوم علم النفس الغربي تقوم على جانبين: الأول الحب، والجانب الثاني المكافأة، بمعنى أن الإنسان عندما يحب الطرف الآخر (زوجته) فهو أي الفرد يرغب في أن يخلع (الآخر) الحب عليه حتى يتحسس أهميته وقيمته الذاتية، لكننا في ثقافتنا الإسلامية عندما نحب فإن (الآخر) يحبنا بالضرورة لا لأننا (نرغب) في استحواذ وإشباع حب الطرف الآخر فنحن نطلب الأجر من الله سبحانه وتعالى. وكذلك فيما يخص المكافأة فنحن نقدم التنازل للطرف الآخر ليس بقصد الحصول على مقابل مادي أو قانوني بل نرجو الثواب في الآخرة.

إذاً التضحية من أجل تماسك الأسرة والحفاظ على مستقبل ورعاية الأبناء لها يعد عبادة، ويتسرب هذا الشعور بالأجر والثواب إلى مكون حياتنا النفسي فيشعر الإنسان وهو يضحي من أجل الأبناء بسعادة غامرة. نحن نعتقد أنه بوسع الأبوة والأمومة أن يكونا من أعظم وأبقى مصادر السعادة خاصة بالنسبة للنساء.. قال ابن المبارك وهو مع جيش المسلمين في إحدى الغزوات: "أتعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟" قالوا: "ما هو؟" قال: "رجل ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين فغطاهم

بثوبه".. وقيل للزاهد إبراهيم بن أدهم: "طوبى لك؛ فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة" قال: "لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه".

هنا أرغب أن ألفت انتباه زملائي المدربين والممارسين للبرمجة اللغوية العصبية (NLP) عندما يتحدثون عن علاقة هذا العلم بالسعادة أن يقوموا بقراءة جديدة فيما يخص المستويات المنطقية للتغيير، وهي مستويات ذات صلة باعتقاداتنا ويمثل المستوى الروحي أعمق المستويات وهو الذي يوجه حياتنا ويشكلها بوعي منا أو بدون وعي.

فنحن دائماً بحاجة إلى بعض الوقفات الذكية في تراثنا الديني ونسأل بعض الأسئلة مثلاً: الأخلاق الحميدة واحدة فلماذا حثّ الرسول ﷺ بأن تكون ممارستها في داخل المنزل أعلى درجة عند الله من ممارستها في الخارج مع الأصدقاء وعامة الناس؟ هل ممارسة الرجل للأخلاق الفاضلة خارج المنزل مع الناس لها دوافع من قبيل حب الظهور وبناء السمعة الطيبة؟ وهل التضحية من أجل سعادة الأسرة والأبناء لها في ثقافتنا الإسلامية هدف ابتغاء مرضاة الله؟ أسئلة مهمة ومتعددة ونحن لا نميل أن نقدم إجابات معلبة وجاهزة للقارئ، لكننا نشركه معنا في التفكير وفي الإجابة عليها. كما أننا نقبل من القارئ لو قدم لنا توصية أو دعوة لتدريب أصول الحياة الزوجية في المدارس باعتباره فناً لابد من تعلمه ومعرفة قواعده ضمن منهج متكامل يدرس لطلاب وطالبات المرحلة الثانوية ليشتمل على شروط ومتطلبات الزواج الناجح.

ثقافة المطالبة بالحقوق

تذكر كتب التاريخ الموقف المشهور الذي درسناه في مراحل التعليم الأولى من أن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز دخلت عليه في أول خلافته وفود من المهنئين وكان من بينهم وفد من الحجازيين يتقدمهم غلام صغير لم يبلغ إحدى عشرة سنة. فقال له عمر: ارجع أنت وليتقدم من هو أسن منك!! فقال الغلام: أيد الله أمير المؤمنين، المرء بأصغريه قلبه ولسانه؛ فإذا منح الله العبد لساناً لا فظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا.

وجاء في كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) أن امرأة مرت بقوم في بني نمير، فأخذوا ينظرون إليها ويتواصفونها (بمعنى التحرش)، فقالت: قبحكم الله يا بني نمير ما امتثلتم واحدة من اثنتين: لا قول الله تعالى حيث يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[1].

ولا قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فأفحموا بذلك وذهبوا.

---

[1] سورة النور، الآية 30.

البنية التحتية للمطالبة بالحقوق:

في الحادثتين السابقتين يمكننا تلمس روح الشجاعة الأدبية التي تغلغلت في الممارسات اليومية للمسلمين على مستوى الشارع وفي البيوت وفي المواقع الرسمية وفي الصداقات والعلاقات الفردية، ولا شك أن في تراثنا الإسلامي زخم كبير من القصص والمواقف الدالة على القيم الحاكمة في انبعاث أمثال تلك السلوكيات والتي يعبر عنها باللغة التربوية المعاصرة (توكيد الذات - Assertive Person) وهو مصطلح يشير إلى قدرة الفرد في التعبير الملائم (لفظاً وسلوكاً) عن مشاعره وأفكاره وآرائه تجاه الأشخاص والمواقف من حوله، والمطالبة بحقوقه (التي يستحقها) دون ظلم أو عدوان.

والحقيقة أن هناك معادلة بسيطة تحكم فكرة (السلوك التوكيدي) فالشخص المؤكد لذاته يتمتع بصفات: فهو وسط لا يقبل الإذعان للآخرين ولا يقوم بالتسلط عليهم وظلمهم، وهو متوافق في سلوكه الظاهر مع مشاعره وأفكاره الداخلية، ويستطيع الحصول على حقوقه وكذلك الاحترام اللائق به وهذه الوسطية عبر عنها الإمام زين العابدين (علي بن الحسين) بقوله المعروف (اللهم لا تجعلني ظالماً ولا مظلوماً)، فالشخصية التوكيدية ليست سلبية (Passive Person) بمعنى أن تقبل الضيم وتتنازل عن حقوقها وفي الوقت نفسه هي ليست عدوانية Aggressive Person أي تعتدي على الآخرين وتنتزع حقوقها بالقوة والعنف والوسائل غير المشروعة قانوناً.

والحقيقة أننا إذا طالعنا أدبيات (السلوك التوكيدي) فسوف نرصد

أن هذه الأدبيات قد تخطت في الثقافة الغربية أن تكون مجرد مجموعة من الإجراءات السلوكية للتعامل مع بعض المشكلات النفسية، ولكنها أصبحت فلسفة حياة تهدف إلى تعميق احترام الذات وجعل الفرد أكثر ثقة بذاته وبالقيم الحقوقية الناشطة في حركته الاجتماعية، ولعل فلسفة (جون ديوي) المرتكزة أساساً على النظرية البراغماتية (**pragmatism**) (سوف تكون لنا وقفة فاحصة لهذه النظرية وعلاقتها بالنموذج الأمريكي المعاصر وتعرف أيضاً باسم مذهب الذرائع). هذه الفلسفة هيّأت الغرب منذ حقبة الستينيات إلى ظهور توجهات فكرية ذات استجابات توكيدية تتمثل في التعبير المنفتح عن الرغبات والمعتقدات والتدريب على مواجهة أعباء الحياة بصورة مستقلة وتعزيز ممارسات وأساليب للتنشئة الأسرية تشجع على (التوكيد)،كل ذلك أفرز على المستوى السياسي -وبطريق غير مباشر- فكرة المناداة بحرية التعبير عن الآراء والانتخابات وتكوين المنتديات الفكرية وظهور جماعات الضغط والتجمعات المهنية، كما فسح المجال على المستوى الاجتماعي إلى انتشار الجمعيات الأهلية والتطوعية بحيث تعاظم عند هؤلاء الناشطين مستوى (التوكيد) فأعلنوا عن مواقفهم والمطالبة بحقوقهم، لذا كان المشروع التربوي الرسمي والأسري هو الأساس والبنية التحتية في حركية مفاصل الحياة.

ولعله من المهم في هذا السياق أن نبحث في تراثنا الإسلامي عن المضامين الحقوقية، ونستذكر هنا (رسالة الحقوق للإمام علي زين العابدين بن الحسين) رضي الله عنهما وهي خمسون حقاً منها: حق الله وحق النفس وحق اللسان وحق الرعية بالعلم وحقها بالسلطان وحق الأم والأب وحق

الناس وحق الجليس وحق الجار وحق أهل الذمة وحق المشاهدة والنصيحة وحق الناصح وحق الكبير وحق الصغير. وهي تشكل قاعدة غنية لفقهائنا وعلمائنا لتبيان حقوق الفرد وحقوق الجماعة ومن تلك تنبع دولة القانون المبنية على العدل والإنصاف.

بين لوكربي ومخيم مرج الزهور:

بعيداً عن عدالة أو عدم عدالة الحكم الذي صدر في حادثة سقوط طائرة لوكربي وتعاطفنا مع ليبيا كدولة عربية، إلا أن هناك مشهداً جديراً بالتأمل، وهو يتصل بذلك التكتل الأسري لضحايا الحادثة في أمريكا حيث وكّلوا المحامين وتابعوا القضية وتواصلوا مع بعضهم البعض لممارسة الضغوط على السلطة السياسية حتى وصلت قضيتهم إلى (مجلس الأمن) وأخيراً كسبوا القضية.

الدرس المستفاد هنا أن مواقف الأهالي تجاه أي حادثة في المجتمعات الغربية لا يشبه التكتلات الأسرية في المجتمعات الشرقية التي تجتمع من أجل ثقافة الطعام؛ فيكون التلاحم العائلي شكلياً ساذجاً يعكس روح عصر ما قبل الدولة! والسؤال ماذا لو أن حادثة لوكربي وقعت في أحد المجتمعات الشرقية. كيف سيتصرف الأهالي؟

نعم هناك إشكالية تتصل بثقافة المطالبة بالحقوق، فهي في الغرب متجذرة في القاعدة (في البيت والشارع والمدرسة) وتتحرك ضمن الثورة الحقوقية التي يعيشها المجتمع الغربي وظاهرة (السلوك التوكيدي) إحدى مفردات تلك الحركة الحقوقية، لكنها في المجتمعات الشرقية منكمشة نخبوية تمارس في رأس الهرم الاجتماعي، بمعنى أن المطالب والحقوق من

اختصاص النخبة فقط!! ولعل حادثة مخيم (مرج الزهور) أفضل مثال على السلوك التو كيدي الذي مارسته النخبة بشكل ناجح، فقد احتضن جنوب لبنان عام 1992م بين جنباته (415) فلسطينياً تم إبعادهم من قبل إسرائيل؛ فاستطاعت تلك الكوكبة في (منطقة نائية) لفت انتباه الرأي العام الدولي؛ وذلك بفضل سلوكهم التوكيدي وقدرتهم التنظيمية العالية على تحقيق انتصار يضاف إلى رصيد تجاربنا التاريخية المفعمة بالإباء والثقة بالنفس والكرامة الإنسانية، ولعلنا في هذا الهامش بحاجة إلى تذكر قول آينشتاين: إن كشف الحقيقة مرة واحدة لا يكفي، فالحقيقة تشبه تمثال الرخام المنصوب في صحراء تضرب فيها عواصف الرمل، وهو مهدد بالاختفاء في كل لحظة، والأيدي الماهرة هي التي تنفض عنه الرمال باستمرار وهي التي تحافظ على لمعانه تحت ضوء الشمس.

بين جمال اللباس ومؤامرة الأزياء

إلى قبل بضعة أعوام كانت الأوضاع السياسية والثقافية تفرض نفسها على ألبسة الشباب في جميع أنحاء العالم، فاليساريون مثلاً وقبل انهيار الاتحاد السوفيتي يفضلون القمصان الحمر وأربطة العنق والمناديل الحمر التي أصبحت ماركة يسارية حتى في بلداننا العربية، في حين يفضل الفاشيون لبس القمصان السود أما الديمقراطيون فيفضلون الهندام الكلاسيكي المحتشم.

أما اليوم وفي عصر العولمة فلم تعد موضة الأحزاب السياسية هي المهيمنة؛ فاختلط الحابل بالنابل، فالكوفية الفلسطينية على سبيل المثال كانت رمزاً للنضال والمقاومة واليوم يلفها اليميني واليساري والفوضوي وشباب الضواحي وأطراف المدن الكبيرة الذين تنتشر بينهم البطالة والجريمة وتعاطي المخدرات، بل وتجد الكوفية على أكتاف (الفتوات) أو بتعبير إخواننا في مصر (شباب البلطجة).

هل اللباس نص قابل للتأويل؟

غالباً ما نسمع مقارنات يعقدها جيل الآباء بينهم وبين أبنائهم حين كانوا في العمر نفسه، فالآباء أينما كانوا في وطننا العربي أو في صحراء أفريقيا أوفي قلب أوروبا يتذمرون بسبب أو بغير سبب من تصرفات ما يسمونه

(تفاهات) اهتمامات الأبناء وينتقدونهم سراً وعلناً مؤكدين أن أبناءهم يهتمون فقط بالتافه الاستهلاكي وكأن الآباء يستبطنون شيئاً من لغة (العفة التاريخية).

وعند التمعن والتدقيق في دلالات الملابس قد نلاحظ انتشار ظاهرة ملابس معينة جديدة تخص مناطق أو طبقة ثرية أو أبناء فئة ذات دخل مرتفع تمثل وظائف مرموقة، في حين نلاحظ كثافة ظواهر شبابية في اللبس والوشم وقص الشعر وطلائه بالألوان في المناطق الفقيرة أو لدى أبناء ذوي الدخل المحدود، لكن الصورة الإعلامية ألغت تلك الفوارق الطبقية، وهي آخذة في تعميم نموذج له مواصفات مدهشة سواء عبر كاميرات التلفزة أو أثناء السفر في عواصم العالم من تسريحات الشعر إلى ارتداء السراويل الليلية التي تحل محل بنطلونات الجينز الممزقة عمداً وسلاسل بكل الأثقال والأحجام الملونة وأربطة رجالية معلقة في أعناق الفتيات ودبابيس وحلق معلقة بالأنوف والألسن والشفاه والبطون! وكأنها بشائر "عولمة التجميل" المقبلة لا محالة مع عولمة السياسة والثقافة والأخلاق التي تتزعمها أمريكا.

أيديولوجيا الصورة:

لم يعد أمر اقتحام المجتمعات والدخول ضمن نمط حياتها اليومية مسألة ترتبط بقيم الناس واختياراتهم، لقد تحولت "عولمة التجميل" إلى استهلاك وكأنها حالة موضوعية من حيث الظاهر، لكنها في الواقع تقوم على مبدأ استخدام الدراسات وتوظيف المعلومات لكي يتم بواسطتها لوي أعناق الشعوب بمهارة تسويقية وحرفية عالية، وتظل الآلة الرأسمالية أكبر من هذا القلم الذي يتماهى مع قول الكاتب الإيرلندي (جيمس جويس):

"إياك أن تتكيف مع الأمر الواقع، ارفس هذه الثقافة إذا ما أرادت أن تتعالى عليك.. ارفس أمريكا في القلب والأحشاء، ثم ابصق على كل مصاب بالعصاب هناك، وامسح حذاءك بوجهه إذا ما أراد أن يجرك معه إلى الحضيض".

وسواء اتفقنا مع (جويس) أم لا في طرحه اللاذع، إلا أننا لا يمكن اليوم أن نسمي (الأزياء) بوضعها الحالي مفردة مرادفة لمعنى التحضر وبعيدة عن السوق الرأسمالي القائم على فصل الاقتصاد عن القيم الأخلاقية، أو بالمفهوم (الأيديولوجي) العلماني القائم على فصل الدين عن الدولة وضمان حرية التعبير والمعتقد بما فيها اللباس، فهو أي اللباس لا يحضر هنا بوصفه قضية اختيار شخصي بقدر ما هو قضية ثقافة توحي بدلالات وتكشف عن هوية وقيم.

الحجاب بين الرمز والعلامة:

قواميس علم النفس الاجتماعي تفرق بين الرمز والعلامة، فالحجاب مثلاً ليس رمزاً (**symbol**) بل علامة (**sign**) بمعنى أننا عندما نشاهد الدخان فهو يعني وجود نار لكننا عندما نشاهد لوحة عليها الجمجمة ذات العظمتين المتقاطعتين فهو رمز دال على الخطر، وكذلك (الشوكة والسكين) رمز يدل على وجود مطعم في الجوار، فـ "العلامة" هي مقدمة لنتيجة تدل عليها، أما "الرمز" فيحمل رسالة توصيلية؛ لذا فالحجاب "شعيرة" تعبدية ليس الهدف منها الترفيه أو التجمل، لكن الحجاب من زاوية ثانية علامة بمعنى أن من ترتديه امرأة مسلمة ملتزمة بدينها، أي أن الحجاب له وظيفة تعبدية لا تحريضية دعائية كما هو الحال في رموز نجمة داوود أو الصليب أو

في رموز علم الأحزاب السياسية، فالحجاب ليس له أغراض دعوية بل تعبدية وقد يحق للدولة في فرنسا أو في أي مكان التدخل إذا قامت المتحجبة بتوزيع المنشورات، والسبب هنا أن الشركة أو المدرسة تفقد حيادها.

فالملاحظ أن قضية الحجاب في فرنسا كان لها رد فعل تأويلي (إسلاموفوبيا)، أي ليس باعتباره قطعة قماش توضع على الرأس ولكن بما يختزن من دلالات كاشفة عن رسالة تتجاوز المظهر. والثقافة الغربية وعلى الأخص الأمريكية لها باع طويل في مسألة (الرموز) وهو في تقديرنا سلوك تعويضي عن الشعور بالنقص لعدم انتمائهم لحضارة عريقة، كالحضارة الإسلامية والهندية والصينية؛ فنجدهم يطلقون رموزاً غريبة وتشبيهات تدل على خوائهم الروحي والمعنوي؛ فنلاحظ علاقتهم برموز الحيوانات، ولا يرجع اهتمامهم بالحيوانات إلى حبهم واحترامهم لحضارة الهنود الحمر، فنجد أن شعار الحزب الديمقراطي هو (الحمار)، والحزب الخصم أي الجمهوري له رمز (حيواني) أيضاً!! فشعار الحزب الجمهوري هو (الفيل)، بل إن (البومة) وعلى خلاف معتقدات سائر الحضارات تمثل للأمريكيين رمزاً للحكمة والذكاء! وليس رمزاً للشؤم وسوء الطالع! وبناءً على قوة أمريكا الاقتصادية والإعلامية نلاحظ أنها استطاعت بقوة (أيديولوجيا الصورة) أن تربط السوق العالمي بهواجس عقدة النقص الحضارية (الحيوانية) فاعتبرت (الثور) رمزاً لصعود الأسواق بينما اعتبرت (الدب) رمزاً لانخفاضها، فيقول الأمريكان فلان (مستثور) كدلالة لفظية على التفاؤل بارتفاع الأسواق المالية والنمو الاقتصادي، ويقال أيضاً فلان (دبي) نسبة إلى الدب بدلالة التشاؤم من أداء السوق وانخفاض الأسواق المالية.

وبناء على معطيات تلك الثقافة تكون كل الخيارات متاحة في أن يتأمرك الإنسان، ومن ثم يكون مستثوراً أو أن يكون دبياً! وكذلك المرأة المسلمة لها الخيار في أن تتحجب وتستلهم دلالات اللباس وقيمته العريقة ورمزيته أو أن تستثور أو تستدبب!!

هل اللعبة قديمة جديدة؟

لا يزال البعض يتذكر أشهر إعلانات (كوكا كولا)، ذلك الإعلان الذي يصور أحد أبطال كرة القدم وهو يأخذ زجاجة (كوكا كولا) من أحد الأطفال الباسمين وبعد أن يشرب أول جرعة منها يخلع فانيلته ويقدمها هدية للطفل.

لقد أعجب مدير (كوكا كولا) بهذا الإعلان وكذلك الموظفون والموزعون بل وحتى بطل كرة القدم نفسه، لكن مدير التسويق (SERGIOZYMAN) الذي أنقذ الشركة من التدهور خصوصاً بعد تقديمها أفشل منتج وهو (نيو كوك) أمر بسحب الإعلان ووقف إهدار النفقات! ويعلق (زيمان) بأنه قام بقياس أرقام المبيعات قبل عرض الإعلان فلم يجد تغييراً يغطي النفقات، عندها شعر بأن الناس تحتاج أسباباً مختلفة حتى تقبل على شراء (كوكا كولا) في أوقاتهم العادية وأثناء مشاهدتهم التلفزيون وعند تناولهم الطعام وعند ارتفاع حرارة الجو، وبهذا شرح (الإعلان) للناس الأسباب الحقيقية لشراء المشروب البارد، عندها لاحظ (زيمان) الارتفاع العالي في أرقام المبيعات!

إذاً (الإعلانات) مدروسة، وليس الهدف منها إدخال السرور على المشاهدين، فهناك علاقة مباشرة بين الرسالة التسويقية وأرقام المبيعات،

فالإعلانات يقف وراءها رجال أعمال وعلماء نفس هدفهم ليس إضافة المزيد من الإبهار إلى خيال العملاء والناس بل تحفيزهم على القيام بخطوات للشراء الفعلي لا الخيالي.

وقديماً قام الشاعر بدور (مهندسي التسويق) ولكن معتمداً على سلطة اللغة لا سلطة الصورة الإعلانية، وذلك في قصة (الخمار الأسود) التي جاءت في كتاب (قصص العرب 4/ 22) عن الأصمعي أن تاجراً من العراق قدم المدينة بعدل من خمر النساء - والخمر: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، فباع كل الألوان إلا الأسود لم يرغب في شرائه أحد، فشكا ذلك إلى الشاعر الطريف (مسكين الدارمي) واسمه (ربيعة بن عامر) فعمد الشاعر إلى قدراته الدعائية فأنشد بذكاء غير معتاد:

قل للمليحة في الخمار الأسودِ ... ماذا صنعت براهب متعبدِ؟

قد كان شمر للصلاة ثيابه ... حتى وقفت له بباب المسجدِ

ردي عليه صلاته وصيامه ... لا تفتنيه بحق دين محمد

عندها هرولت النساء في المدينة وابتاعت الخمار الأسود خصوصاً وأن الإعلان (الشعر) قد ربط بين اللون الأسود والظرف (الملاحة)، فاللباس هنا ليس فعلاً ينحصر في الجمال بل له دلالات تتصل بمجموعة من العوامل!! هنا بالضبط وجب أن نتذكر أن الاكتشاف يتكون من: رؤية ما يراه الجميع والتفكير فيما لم يفكر فيه أحد.

خلف أسوار المدارس

"لقد ذبح الكبش فداءً لإسماعيل، ولكن
لو ذبح إسماعيل فما قيمة أن يذبح الكبش؟".

عزيز السيد جاسم

إن تخلي الأفراد عن مواقفهم الإيجابية نحو القضايا والأشخاص نتيجة لرضوخهم وخضوعهم لقيم ومبادئ غريبة وشاذة ومتناقضة لما هو ثابت في المقررات التعليمية يقدم لنا مؤشراً على أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مؤسسات التنشئة الاجتماعية بأدواتها المختلفة وفي مقدمتها الأسرة ودور العبادة وأجهزة الإعلام ونوادي الشباب وجماعات الرفاق (الشلة) وبين السلوكيات المنحرفة من تعصب وتطرف وتهميش للآخر.

لقد تم التركيز مؤخراً على مسألة تغيير أو تطوير المناهج الدراسية فقط! لكننا هنا نسلط الضوء على التأثير القادم من خارج المناهج، نعم نحن من المؤيدين لعملية تطوير وتغيير المناهج، لكن ليس على حساب بقية وسائط التأثير الأخرى والتي تعرف باسم (التربية غير المقصودة) والتي تتبناها مؤسسات التنشئة الاجتماعية ذات التأثير السلوكي البالغ الأهمية. ولعل من أقوى الشواهد على أن الثقافة المتسربة من خارج جدران المدارس النظامية هو أن أبرز قادة تنظيم القاعدة (ابن لادن والظواهري) لم يلتحقا بمؤسسات التعليم الشرعي في أي مرحلة من المراحل وهو دليل على تأثير

التعليم الموازي (غير النظامي) والذي يسهم في تشكيل ثقافة الناس عبر المساجد والمنازل والمخيمات الدعوية وجماعات الرفاق.

لا نرغب هنا أن يتغلب السياسي على التربوي، لكن المنطق الكامن هو أن تمسك الأفراد بقيم عالية دينية ووطنية نقية وواضحة عبر المدرسة (المنهج الرسمي) والخطاب الديني الرسمي أمر في غاية الأهمية، لكنه غير كاف لبناء منظومة من القيم السليمة التي تعزز خطوط التواصل بين أفراد الوطن الواحد.

إن عدم "الانسجام" بين ما يطرح في المناهج الرسمية وما يتلقاه الطفل خارج أسوار المدارس من مطبوعات مقروءة (كتب ومجلات) ومن ثقافة شفوية كالأشرطة السمعية (الكاسيت) والبصرية مثل أفلام الكرتون، الفيديو، المحاضرات، الخطب، ندوات، الأناشيد، وأنشطة أخرى مختلفة جميعها قد تقود إلى ظاهرة (ازدواجية التوجه القيمي) في الموقف الواحد بحيث يفضي إلى اضطراب الظاهر والباطن لدى الأفراد فينطبق على واقعنا قول الشاعر العربي الكميت بن زياد الأسدي:

كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل

المنهج المستتر:

من أين تتسرب وتستفحل أهم ثلاث قضايا يعاني منها مجتمعنا (القبلية - الإقليمية - الطائفية)؟ إنها تخلق وتكتمل عافيتها هناك خلف أسوار المدارس، وهي التي تشكل الأرضية والثقافة التحتية لقرارات الناس عند الكبر وهم يقبعون وراء طاولة المناصب العليا.

اليوم يتحدث أهل الاختصاص عن أهمية وتأثير (المنهج المستتر)

Hidden Curriculum ويركزون على وظيفة هذا المنهج والذي يتضمن عمليات تلقين أو غرس القيم والتطبيع السياسي وتعود الطاعة والانقيادية من خلال محاولة تشكيل الشخصية على النحو الذي يراه أصحاب السلطة من القادة والحكام. وقد تمت عدة دراسات في الماضي على تربية شباب هتلر في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية والتربية الفاشية على يد موسوليني في إيطاليا وتربية الكيبوتزات في إسرائيل وكذلك الأحزاب القومية في الشرق الأوسط وأخيراً التربية الدينية لدى شعوب العالم الإسلامي.

الاتجاهات الحديثة تركز في هذه المرحلة على الربط بين محكات اجتماعية في الواقع من جهة وبين القيم والاتجاهات والمبادئ المرغوب بثها في أداء التلاميذ من جهة أخرى وهو ما يطلق عليه (تربية الأعماق) أياً كانت وجهتها موجبة أو سالبة وتبعاً للبعد السياسي والاجتماعي المأخوذ في الاعتبار وتبعاً للقوى المؤثرة في هذه التربية ومجال تأثيرها وكيفية تأثيرها.

ويبدو أن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) قد تنبه إلى أهمية (القيم المستترة) حين اعترض على مؤدب ولده الذي قدم قصيدة لـ (عروة بن الورد) تتضمن أبياتاً تدعو إلى أن يهجر الإنسان وطنه إذا اشتد حال الفقر حيث يقول فيها عروة لزوجته:

دعيني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير

ويقصيه الولي وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

إن اعتراض عبدالله بن جعفر على القيم التحتية التي سوف تشكل ذهنية ومواقف أولاده في المستقبل تمثل التفاتة تربوية ذكية ودرساً نتعلم منه الكثير حتى لا يقتصر دورنا على الأناشيد الوطنية في طابور الصباح المدرسي.

... لـذا فنحن نعتقد بضرورة الرؤيـة الشاملـة وعـدم التخشـب أمـام فكـرة التطوير وإعـادة النظـر في مناهجنـا الرسـمية وغـير الرسـميـة. فهناك شريحـة مـن النـاس تخلـط فـيما يخـص المنـاهج بـين ثـلاث مفـردات (التحسين- التطوير- التغيير). تحسين المنهج Curriculum Improvement وتغيير المـنهج (Curriculum Change) وتطـوير المـنهج (Curriculum Development). فالتحسـين عبـارة عـن تغيـير في مظـاهر المـنهج بـدون المساس بالمفاهيم الأساسية للنظام التعليمي لكن التغيير قد يعني تغييراً نحو الأفضل كما قد يكون تغييراً نحو الأسوأ، لذا فالتغيير يحتـاج إلى وقفـة تأمـل كبيرة؛ لأنه يتصل بالقيم، إذاً التغيير أوسع وأشمل من التحسين ومـع ذلـك فإن التغيير يتسم عادة بصفة الجزئية فقد ينصب الاهتمام على جـزء معـين أو جانب ما من المنهج. لكن التطوير يمثل عملية شاملة، وإذا تم التطـوير عـلى أسس صحيحة وعلمية فإنه يؤدي إلى الازدهار والتقدم بخلاف التغيـير، في هذه المقالة الصحفية قد لا يتسع المجال للإسهاب، لكنهـا وقفـة قـد تشـحذ الهمم وتحرض القارئ على المزيد من التعمق والمطالعة.

الأمر الهام في تقديرنا والذي سـتواجه بـه معظـم الـدول في محاولتهـا الجريئة لتغيير المناهج هو من الذي سيضع ويطور المناهج الجديـدة. ونقصـد هنا من هي الجهة المنوط بها تغيير المناهج؟ هل هي مؤسسة عالمية متخصصـة في مجال التعليم مثل اليونسكو؟ أم المنظمة العربية للتربية والثقافة والتعلـيم؟ أم مكـتب التربية العـربي لدول الخليج؟ أم مؤسسات استشـارية متعـددة؟ أو قد نعود إلى نقطة الصفر فتتشكل لجان حكوميـة كـما جـرت العـادة. إننـا نخشى أن تهدر الجهود ويكون مصـير هذه اللجـان مشابهاً لما قـام بـه ذلـك

الرجل الذي أتى إلى أحد الخلفاء وقال: أنا يا مولاي أقدر على تقديم ما يبهرك ولا يقدر عليه غيري. فقال له الخليفة: أرني. فأخرج الذكي كومة من إبر الخياطة ولوحة من الورق. ثم جعل ينشن الواحدة لتستقر في عروة الإبرة السابقة حتى انتهت الكومة. فابتسم الخليفة وقال: أمرنا لك بألف دينار مكافأة وبجلدك ألف جلدة! أما الأولى فلبراعتك، وأما الثانية فلأنك شغلت وقتك ووقتنا بها يدخل في باب (علم لا ينفع وجهل لا يضر).

الشيزوفرينيا العربية:

عندما يسمع التلميذ أستاذه في المدرسة يتكلم بحرارة عن (أضرار التدخين) ثم يراه في إحدى المناسبات الاجتماعية يدخن تقفز الازدواجية القيمية! وعندما يذهب الطفل إلى المسجد ويسمع كلام الخطيب عن التسامح والعطف الذي يحثنا عليه إسلامنا الحنيف يقوم هذا الطفل بعقد مقارنة بين ما يسمع في المسجد وبين ما يرى في المنزل أي أنه يختصر مشهد ما يسمع وما يرى.

عندما يكبر وهو (ابن قبيلة) يعتد بها يسترجع شريط ما هو مفهوم التكافؤ في الإسلام عندما تعلمه وهو صغير في مقاعده الدراسية الأولى. التكافؤ في اللغة النظير ومنه الكفاءة في النكاح وهو أن يكون الزوج مساوياً للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها، ويقال فلان كفء فلانة إذا كان يصلح لها بعلاً.

إذاً، الإسلام كسر الحواجز الطبقية التي من شأنها أن تفرق المسلمين وجعل التكافؤ الحقيقي في الدين لأنه الرابط الوحيد الذي يجعل الإنسان يسمو فوق كل الاعتبارات الأخرى؛ لذا قال النبي الأكرم ﷺ: "المؤمن

كفء المؤمنة"، وقال ﷺ: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه"، ولم يكتف الرسول ﷺ بهذا الحد من التعليم النظري بل مارسه على مستوى التطبيق العملي فنراه تزوج من خارج قريش - أشرف القبائل وأعرقها - وزوج زيداً ابنة عمته زينب بنت جحش وتزوج بها بعد طلاق زيد لها وبهذا يكون ﷺ كسر حاجزين جاهليين في وقت واحد؛ زوج المكافئ في الدين وتزوج بطليقة العبد المسلم.

كان ذلك الحديث على مستوى المقاعد الدراسية لكن معضلة (القبيلي - غير القبيلي) لا تزال تتحرك اجتماعياً بل ومن المسكوت عنها لأنها تتصل بالمصالح والمكانة والأهواء، وكما يقول (أندريه هاينال) في كتابه (سيكولوجية التعصب): "في المجتمع المنغلق مثل مجتمع القرون الوسطى مكانة الفرد تكون محددة مسبقاً بالولادة!".

إن الخطير في هذه المشاهد أن ينشأ الإنسان في هذا المجتمع ويتكيف مع أدوار متناقضة بين داخل وخارج أسوار المدارس، والدور لفظ مشتق من عمل المسرح أو السينما (فالدور) حالة من المعايشة مع الحياة والفرق بين الممثل على خشبة المسرح وبيننا في الحياة أن الممثل هناك يقبل أو يرفض (الدور) ولكننا نحن نخضع لقرار (القبيلة) والأكثرية فنتحول إلى نموذج (الإمعة) الذي يتوحد مع نسيج التناقض، مع أن الجميع يحفظ عن ظهر قلب الحديث الوارد (لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس. إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت لكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا أن تتجنبوا إساءتهم). إنها دعوة للمفكر الاجتماعي الحصيف أن يحفر نزولاً من السطح إلى العمق.

رمضان في القطيف...
شهر الحب وهجران المعاصي

لشهر رمضان الكريم في القطيف نكهته الخاصة ومذاقه المتميز وعاداته الراسخة التي توارثها أهل البلاد عن أسلافهم جيلاً بعد جيل، وكأن الشهر الفضيل يعلن المصالحة بين ماضي وتراث الأجداد وبين ملامح التقدم في عصرنا الحديث، هذا التزاوج الرومانسي في الشهر المبارك يغري الجميع بحيث لا يقوى أي من أبنائه على صوم رمضان في مضارب مدينة أخرى.

وإذا كان هذا الشهر المبارك موسماً تعبدياً تمارس فيه أسمى فريضة وهي فريضة الصوم فإن المؤمن يشذى فيه بالصلاة والذكر والدعاء، وينسلخ عن عبادة زمن المال ورجال الأعمال!! لينطلق الإنسان في فضاء حاجة المساكين والأيتام، فيضخ الشهر الكريم دماً جديداً للمصابين (بأنيميا المحبة) وفي الوقت نفسه يعاتب المذنبين ويزيد في سمره من لوعة أهل العشق الرباني وأهل التعبد فيجعل البحر أكثر زرقة ويجعل الطيور ترفرف فوق نخيل بلادي.

اللقاحات المعنوية:

على هذه المائدة الثقافية والروحية يسعى الأهالي إلى تحجيم أي وجه للترف والترهل المذموم ويستوي في ذلك الشيخ المتعبد والشاب المذنب

الذي زلت قدماه فألف إحدى المعاصي. فأجواء هذا الشهر المحتشمة تجعل المذنبين يستوحشون من الرجوع إلى تلك المثالب فيعمل شهر الفضيلة على تنقية الغبار الذي تثيره خيول الشهوة الجامحة حين يصك مسامع الجميع صوت مآذن القطيف وهي تنطق بالشهادتين، ويلتقي في ذلك موقف المواطن والمقيم حيث ترفرف راية الوطن العزيزة إجلالاً لهذا الشهر العظيم.

وإذا كان الناس قد تغيروا بحسب ما تغير الزمان وأصبحت الحياة المعاصرة أكثر تعقيداً وتبدلت النفوس وتنوعت اهتمامات الأفراد والعوائل، إلا أننا نلاحظ أن هذا الشهر وفي صولجانه ينكسر ذلك الانتظام الآلي لحركة الناس واتجاهات الناس فينقلب الليل نهاراً ويرتبط مفهوم التعبد لله والإعداد للآخرة بمتعة الدنيا وطيب العيش المباح، وهو تجسيد عملي بمعناه لما ورد عن حبيب قلوبنا وشفيع ذنوبنا الرسول الأعظم ﷺ: "إن يعمل الإنسان لدنياه كما يعمل لآخرته".

هنا على أبواب هذه المدينة روح الماضي تنبعث من جديد في ثوب ناعم كالحرير فيبدأ في شهر شعبان الإعداد المادي والروحي لهذا الضيف الكريم فيتقاسم أفراد الأسرة الأدوار فيما بينهم حتى إذا حل شهر الصيام كان كل شيء كالقمر في تمامه، عندها تشرع النساء في إعداد الأطعمة فينزعن من قاموس المجلات الجديدة أشهى الطبخات لتلتحق بقاموس الطبخات القديمة ذات الماركة الخليجية المسجلة (الهريس، الخبيص، التلاقيم، ولا يغيب عن البال الخنفروش) وتتعاون الأم مع بناتها في إعداد هذه الأكلات وكيفية صنعها، فيصبح شهر رمضان حلقة أو (دورة تدريبية) على غرار ما يتم في معاهد الإدارة ومراكز التدريب العالمية، لكن هذا

التراث الشعبي الأصيل ينساب هنا من جيل الأمهات والجدات إلى جيل البنات، وبشكل طبيعي وبدون إجراءات رسمية ولا مساحيق أكاديمية.

رومانسية معاصرة:

كل الشهور صغيرة الحجم على مجتمعنا إلا هذا الثوب فإنه يزيد من وسامته وأناقته بل ويظهر مكامن القوة في هذا المجتمع، فعندما خسرنا كل شيء وتغير الزمان بقي لنا الوازع العقائدي والروحي فلم تعد الأكلات ذات طابع غريزي فهي تقوم بدور المقويات التي تساعد الصائم على مقاومة الجوع، لكنها في الجوهر (منهج تربوي)؛ لذلك تنطلق الأطباق والوجبات الدسمة إلى الأرحام والجيران محملة على أيدي الصبية ومخبأة تحت عباءات النسوة، في مشهد اجتماعي رائع تحتوي مكوناته على (الزيت، والزبدة، والزنجبيل، والعسل، والقرفة، والسميد واللوز) مضافاً له نية التقرب إلى الله (ولو بشق تمرة).

على ضفاف (ساحل الذهب الأسود) وفي هذا الشهر تكثر الزيارات والأعراس والمناسبات، فهناك ورشة عمل للفن التشكيلي والتصوير الضوئي والخط العربي وسنابل الخير، وهناك سوق خيري وزواج جماعي وتجارة السمك، وهناك الديوانيات حوار الياسمين كما يطربك تغريد الأطفال وهم ينطلقون على أرصفة الفرح وعلى الأخص في النصف منه (القرقعان)، حيث قال أحد الأجانب وهو يحاورني: ما أعظم تلك الثقة التي تمنحونها لأطفالكم.. ينتقلون بين الحارات ويدخلون البيوت يجمعون الحلوى والفستق في أكياسهم بكل ثقة واطمئنان!.. وقد علقت في حينها بأن ذلك قد يكون غريباً في (لوس أنجلوس أو شيكاغو) التي تكثر فيها

حوادث العنف وسرقة الأطفال، أو في المدن الإسمنتية الصامتة حديثة الولادة.. لكن ليس في هذا المكان.

المسرح الاجتماعي:

في هذه المساحة من الجغرافيا تنساب الطيبة والعفوية بلا اشتراطات وتكلف، فهي تستيقظ كل يوم دون الحاجة إلى أن تذهب إلى غرفة نومها لكي تتأمل وجهها في المرآة لأن جمالها رباني، فهي تختال مشرئبة بين البساتين وأمواج بحر الخليج وهي عندما تقرر كتابة سيرتها الذاتية يصمت اللحن وتصبح الكلمات طوع بنانها ويلعلع الشعر في حناجر أبنائها مستلهمين بذلك تجربة تجمع بين عمق المعنى وهرمية الموقع وكهولة التاريخ مفترشة الألوان الجميلة لأدبنا العربي بمختلف أطيافه.

أن تقوم بجولة في شوارعها يعني أن ترى المسرح الاجتماعي بعين الشاعر وترصد حركة المجتمع بعقلية المحلل الاجتماعي فتطلع على وثيقة اجتماعية للحياة العاطفية، كما يعني أيضاً ملامستك جهازاً عصبياً ينقل إليك الإحساس بجميع الانفعالات.. الفرح.. الحزن.. الديناميكية.. وسوف ترى أن نصف القدح لم يكن فارغاً.. إنه فقط ينتظر!!ينتظر من يقرأ الأشياء بوعي.. وسوف تتسرب إلى أنفاسك في تلك اللحظة رائحة الخبز الأسمر والأصفر، ورائحة البن المطحون المنبعثة من بين الأزقة.. وكذلك طعم الهيل في الفناجين العربية وهي نائمة في أيدي كبار السن الذين تشكلوا في حلقات على قارعة الطريق في كل مساء وعند أفول الحمرة المشرقية ينتظرون إطلالة ضيف يهبط من غيمة الأحلام ليرسم عالماً جديداً مسالماً خالياً من العقد فيذكرنا بالمقولة الجميلة لحكيم الصين كونفوشيوس (الأنهار الأكثر عمقاً هي الأكثر هدوءاً).. إنه فضاء يكتظ بالأجوبة ويحرض على التفكير والانفتاح.

سيكولوجية الزعامة

الزعامة ضرورة لا غنى عنها في ثقافة جميع الشعوب ولا سيما حين تخوض الأمة غمار التحدي والأزمات، فكل أمة لها حالة من الصعود وحالة من الانحدار وإن كل انحطاط سياسي وهزيمة عسكرية لابد أن يصاحبها نهضة وكأن لسان حال الأمم يسأل: من يبعث الطاقة الكامنة لمواجهة حالة الركوع والهزيمة؟

كل أمة معرضة للانكسار، لكن الهزيمة شيء والاستسلام شيء آخر، فالقائد الحقيقي هو الذي يزرع في وعي شعبه منطق رفض الاستسلام للهزيمة وهو بذلك بطل يستحق التقدير حتى لو لم يصنع الانتصار النهائي.

نعم هناك من يفترض انحسار دور البطل في ظل العمل المؤسسي في الوقت الراهن، ونحن لسنا بصدد مناقشة تلك المعادلة التي لا مفر فيها من الإقرار بدور القادة في تحقيق نهوض الأمم حتى مع ظهور الأثر الكبير للجهود المؤسسية العقلانية، فالقضية هنا ليست بين بدائل متناقضة إما الأفراد وإما المؤسسات، بل إنهما يندمجان في أحيان كثيرة حيث تتميز المؤسسات وكذلك الأوطان بجهود أبطال بارزين فيها، فماذا عن بريطانيا لولا (تشرشل)؟ وماذا عن فرنسا لولا (ديغول)؟ وماذا عن الهند لولا (غاندي)؟ وماذا عن إيران لولا(الخميني)؟

إننا نجهد أنفسنا هنا لرصد مساحة صغيرة من سيكولوجية الزعامة، إنها قوة الكلمة المؤثرة التي تقود إلى استنهاض الشعوب، فهي (أي الكلمة أو الخطبة) وسيلة وأداة هامة بيد هذه الزعامات وسلاح يكشف للشعوب آفاق جديدة لمواصلة مسيرة التقدم من جديد. لقد خطب الزعيم الأسود (مارتن لوثر كينج) سنة **1963** وهو يكافح ضد التعصب والعنصرية التي تمارس ضد الأقلية السوداء في أمريكا فقال: (أرى الغد) (أملك حلم) (**I have a dream**) وعند سقوط فرنسا على يد النازيين خطب (شارل ديجول) وقال: "أنا فرنسا وفرنسا أنا".

أحياناً تندمج ملكة الزعامة والفصاحة فتكون (الفصاحة) سلطة بحد ذاتها وقوة مجددة، ولكن هذه (الخلطة) السحرية لا تتأتى إلا لنخبة وثلة قليلة من القيادات على مر التاريخ.

في تاريخنا الإسلامي صور ناصعة من بينها ذلك المشهد في صحراء العراق وإلى جانب شط الفرات حيث كان الإمام الحسين في كربلاء صاحب التاجين تاج (الفصاحة) وتاج (الإمامة)، فقد اتحدتا في شخصه المهيب فانهمرت من خطبته شمس البلاغة وحلقت فوق الجموع المحتشدة كلماته (هيهات منا الذلة) لتكون أهازيج تحتمي بها شعوب العالم من الظلم والاضطهاد وترددها الأجيال إلى يومنا هذا بل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. تلك المقولة التي استدخلها أطفال الحجارة في فلسطين كقيمة محرضة ودافعة للوقوف بكرامة وكبرياء أمام الآلة الصهيونية العاتية.

الخليفة المعتصم حركته كلمة (وا معتصماه) التي أطلقتها امرأة مسلمة عندما أهانها الروم! وجمال الدين الأفغاني خطب واستنكر على سكان الهند

كثرتهم وخضوعهم للمستعمر الأجنبي قائلاً: لو تحولتم إلى سلاحف لأغرقتم الجزيرة البريطانية! وهي كناية عن غياب الإرادة! إرادة الشعوب التي لا تقهر، وألقى موسى الصدر في لبنان خطبة جماهيرية بحضور مليون شخص ترسمت خطبته بشعار (السلاح زينة الرجال) ثم ألحقها بخطبة بدد فيها هاجس المسيحيين اللبنانيين بهدف الحفاظ على الوحدة الداخلية قائلاً: لبنان وطن نهائي فأخذها المسيحيون واستدخلوها بعبارة رومانسية (لبنان أبدي سرمدي).

هكذا للكلمة تجلياتها في الكل الثقافي وهي وسيلة في تألق الزعامة بحيث تترسم في القول والفعل والمصير فعلى قدر مصداقية الكلمة وقيمتها الإنسانية يتجدد المصير. فإذا كانت الشعارات زائفة والكلمات خادعة يسقط المضمون. فعندما رفع المشركون في معركة بدر الكبرى شعار (أُعْلُ هُبَل) جاء الرد من عند العباس (الله أعلى وأجل)، وفي معركة أحد قالت (هند بنت عتبة) وهي تحرك شهوة الجسد في المشركين: "إن تقبلوا نعانق، ونفرش النمارق، أو تدبروا نفارق، فراق غير وامق". ذهبت الشهوة واستشهد حمزة أسد الله الغالب، لكن راية لا إله إلا الله انتشرت ولا تزال خفاقة في أصقاع المعمورة. وعندما رفعت الفاشية والنازية مفاهيمها المرتكزة على القومية العسكرية وثقافة القوة وكان شعارها (الدماء والتربة) (Blut und Boden) جاء الرد من رحم تلك الثقافة حين قاد عالم الاجتماع والفيلسوف المعروف (هيربرت سبنسر) شعار (البقاء للأصلح) فردت الفاشية على أعقابها.

إن الهالة أو الكاريزما السياسية الخادعة التي لا تقف على أرضية

الصدق والعفة والإخلاص والتي تصنع في المطابخ الإعلامية تكون في النهاية خصماً يدمر مستقبل الأمم ويحجم إنجازات الشعوب وينتقص من مساحة المشاركة لأن ضوء الإعلام (دون الأفعال) يبهر ويعمي الأبصار ويلهي القلوب ويغفر المثالب؟ لقد تم تحويل الزعامة إلى حرفة فعمدت الدبلوماسية إلى فصل السياسة عن الأدب والأخلاق واللغة والكلام وإحالته إلى تقنية خالصة.

الزعماء الحقيقيون يوحون برؤيا تقدح في الشعوب الحياة وتمكنهم من تفعيل الإمكانيات التي غيبها الإحباط وضخم من قدرات العدو ولنا في تجربتنا العربية المعاصرة مثال وقدوة حققتها مجموعة من الفلاحين في جنوب لبنان، ورددوا شعاراً بسيطاً لكنه هز الآلة العسكرية الصهيونية (إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت)! شعار قادم لإيقاظ العملاق العربي/ الإسلامي من سباته.

شرطة المجتمع

نقل عن أحد العلماء الصالحين استغرابه حينما أخبر عن سارق سطا على أحد المنازل قرب الفجر متسائلاً: متى أنهى صلاة الليل حتى وسعه الوقت للسرقة؟ هكذا الطبيعة الخيرة للناس في مجتمعاتنا العربية التي تعيش حالة من حسن الظن الذي لا يتناسب مع حوادث الجريمة التي تقترف على يد بعض الجماعات الخارجة على القانون.

فالسرقات النهارية والسرقات أثناء الإجازات وعلى الأخص في فصل الصيف أصبحت حديث البيوت والمجالس، وسواء كتبنا عنها أم لم نكتب فهي تشكل هاجس الجميع لأنها ترتبط بالشعور بالأمن.

والسرقات ليست الجريمة الوحيدة، لكنها تمثل النسبة الأكبر في إجمالي الحوادث الجنائية إلى جانب الحوادث الأخرى كتعاطي المسكرات وحوادث الاعتداء والحوادث الأخلاقية، وإذا كانت جرائم السرقات تزداد وبشكل لافت للنظر، فهل أصبحت السرقات النهارية ظاهرة؟ وإذا كان الجواب بنعمٍ! فما سبب تلك السرقات؟ ومن المسؤول عن حدوث تلك السرقات؟.. عدم كفاءة رجال الأمن؟ أم إحجام المجتمع عن تقديم المساعدة؟ ولماذا تتم عمليات السرقة بنجاح في كل المرات؟ وهل الجريمة في اطّراد وزيادة؟ وهل وصلنا إلى مستوى الجريمة المنظمة؟

هناك في الحقيقة أجوبة مستقرة في أذهان الناس وقد تكون مريحة للنفوس لأنها لا ترغب في الاجتهاد ولا في تفكيك الظاهرة أو البحث عن آفاق عالمية جديدة للحد من ظاهرة الجريمة.

في البداية نقول: إن الشعور بالأمن هو أهم شعور يربط الإنسان بوطنه وبواقعه وبأهله وعائلته ومجتمعه.. هذا الشعور يجب أن لا يهتز أو أن يتآكل وسط ركام المشاعر التي تتسرب عبر المبالغات والإشاعات، دون التركيز على الأسباب الموضوعية والبحث عن بدائل ممكنة للحد من الجريمة تحت شعار (بدلاً من لعن الظلام أشعل شمعة). إننا عندما نتفحص طبيعة تركيبة مجتمعاتنا العربية سوف نرصد حقيقة هامة وهي أن حالة الأمن تتمثل في الامتداد الطبيعي للبنية الدينية التي ترتكز عليها الأسرة العربية المسلمة المتمسكة بقيمها الإسلامية والتي تنعكس بدورها على طبيعة الناس بعيداً عن كفاءة أجهزة الأمن في وطننا العربي، فغالباً ما ينظر الإنسان للآخرين من خلال ذاته، وصاحب الذات الطيبة والنوايا السليمة يتبادر إلى ذهنه غالباً حسن الظن بالآخرين، لكن هذه السمات الخيرة والخصائص المناقبية في بناء الأسرة العربية هل يمكن توظيفها لخدمة الأمن في المجتمع كما فعلت وتفعل مجتمعات الشعوب الأخرى؟..

بداية الفكرة:

العديد من المجتمعات في العالم عندما تمر بأزمة معينة أو بحوادث معينة تكون تلك المشكلات والحوادث بداية محفزة لانبثاق خطوات ومشاريع عمل، على سبيل المثال حادثة "كيتي جينوفيس" وهي امرأة كانت عائدة من العمل إلى منزلها الساعة الثالثة صباحاً من شهر مارس عام

1964م في أحد أحياء نيويورك التي لم تنتشر فيها الجريمة، وأثناء سيرها في حديقة تطل عليها عدة عمارات ومنازل هجم عليها مجرم سفاح، وبدأ يطعنها، لكنها قاومت ببسالة وأخذت تصرخ وتستغيث مما جعله يختفي دون أن يذهب بعيداً، بل كان ينظر هل سيأتي أحد لمساعدتها؟ فلم يحدث شيء؛ فعاود هجومه الشرس وطعنها عدة طعنات واعتدى عليها، وقد استغرقت العملية نصف ساعة تماماً منذ بداية الهجوم، ولم يتدخل أو يقدم أحد أي نوع من المساعدة، ولم يطلب أحد الشرطة بالهاتف! لقد اتضحت هذه المعلومات من التحقيقات مع الجيران في اليوم التالي، إذ أن (38 شخصاً) أقروا بالمشاهدة وسماع استغاثة المرأة!

ما يعنينا من القصة: لماذا تأخرت المساعدة إلى هذا الحد؟ قد لا يتريث البعض في الإجابة على السؤال ويصدر أحكاماً جاهزة بأن عدم المساعدة يرتبط بالمجتمعات الغربية فقط، إننا في هذه الوقفة التأملية وفي هذه السطور لسنا بصدد عقد مقارنة بين المجتمعات، بل نجهد أنفسنا لفهم الظاهرة واستخلاص بعض النتائج، خصوصاً وأن هناك جريمة مماثلة حدثت في مصر ويعرفها أغلب الشعب المصري، وهي حادثة "فتاة العتبة" حيث تمت عملية اغتصاب فتاة على سلم الأتوبيس بميدان العتبة، وقد تمت العملية بالتمام والكمال حتى النهاية أمام أعين جميع الناس ولم يتقدم أحد لإنقاذها!!

المهم أن حادثة وفاة "كيتي جينوفيس" حفزت علماء السلوك في المجتمع الأمريكي على دراسة علم جديد (سلوك المساعدة **helping behavior**) كنتيجة مباشرة لصدمة (أخلاقية - اجتماعية) بينما الحوادث تقع على بعض المجتمعات وتمر مرور الكرام وقد يكون لها رد فعل مؤقت ينتهي بانتهاء الحدث!!

إشراك المجتمع المحلي في مكافحة الجريمة:

شعر علماء السلوك في الغرب أن قيام الشرطة بالعمل الأمني بمفردها ليس كافياً، ولابد من التفكير في طريقة لإشراك المواطن في مكافحة الجريمة وذلك عن طريق الاقتراب من المواطن وإدخال المجتمع في عملية حفظ الأمن والشراكة بين الشرطة والمجتمع، بحيث تعيش الشرطة داخل المجتمع ومع المواطنين ويكون عملها من قبيل المبادرة في التحرك نحو الأحداث المتوقعة، وليس الانتظار لرد الفعل كما هو حال الشرطة التقليدية.

وجهة نظر علماء السلوك أن (شرطة المجتمع) لا يجب أن تهتم بكل المشاكل التي تواجه الشرطة، كالجريمة المنظمة والجرائم الكبيرة، وإنما تركز على الشارع والجيرة في المنطقة ومشاكلها، فقد كان الهدف إحداث تغيير وانقلاب نحو ثقافة شرطية جديدة بحيث تتخذ برنامجاً يسعى إلى تغيير مجهودات الشرطة من رد الفعل على الحوادث الطارئة إلى المبادرة لمنع الجريمة.

أدب المساكنة والجوار:

أثبت العديد من الدراسات أن الجريمة هي نشاط قريب من مكان السكن، وأن نسبة عالية من الجريمة المختلفة ترتكب على بعد (4) كيلومترات من مكان سكن مرتكب الجريمة أو على مسافة أقل من ذلك، كما ذهبت بعض الدراسات إلى أن (70%) من معظم الجرائم المرتكبة - والتي انتهت بالقبض على فاعليها- ارتكبت بواسطة ساكني نفس المنطقة.

يقصد من الحديث السابق أن الجريمة محلية في الغالب وعليه "فشرطة المجتمع" يجب عليها أن تعمل وسط التجمعات الصغيرة وضمن المجتمع المحلي، لذلك فإن دورها متقدم أي قبل وقوع الجريمة وليس

الانتظار حتى تقع، ويتم ذلك من خلال المسؤولية وسط الحي وعبر الاتصال والتواصل مع قيادات المجتمع المحلي، ويمكن أن تقوم هذه التشكيلات بأعمال كزيادة إضاءة الطرقات وتحسين مواقف السيارات.

نحن نقول في هذه السطور: إن الفرد في مجتمعنا يقف على أرضية صلبة من القيم المحرضة على الفعل، ويتكئ على مرجعية دينية وأخلاقية تقدح في كيانه سلوك تحمل المسؤولية وإصلاح كل معوج من المجتمع، النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تستهجن مواقف التفرج وتتدرج في عدم إعفاء المسلم من المسؤولية بدءاً من اللوم ثم التقريع وصولاً إلى إنذاره بالعقاب "من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم". والأحاديث الدالة على وجوب الاهتمام (بالجار) متداولة في ثقافتنا اليومية "ما زال جبريل ﷺ يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"، "من مات وله جيران ثلاثة كلهم راضون عنه غفر له"، "من كف أذاه عن جاره أقاله الله عثرته يوم القيامة". وفي التراث الشعبي: "ليس من المؤمنين الذي يشبع وجاره جايع إلى جنبه".

إن المثل الحي في روحانية الإنسان مع الله وربط ذلك الشعور بحب الناس من خلال حبه سبحانه وتعالى تقدمه فاطمة الزهراء حين أطلقت شعاراً هاماً يجسد ذلك التوازن (الجار قبل الدار) ولعل البعض يكرر تلك المقولة دون العلم بمن قالها إنها فاطمة بنت محمد التي قدمت القدوة في التوازن بين العبادات والمعاملات وقد توارثها الجيل العربي/ المسلم واستقرت في اللاوعي الجماعي حتى نقل عن أم المؤمنين (عائشة) "ما رأيت أعبد في هذه الأمة من فاطمة". كما حدد أهل العلم أن حقوق الجار تدور في

مرتكـزات ثلاثـة: "كـف الأذى.. الإحسـان إليـه.. الصـبر عـلى إيذائـه". وتأسيساً على ذلك نقول: إن بإمكان مجتمعنا أن يبدع ويبتكر وسائل متنوعـة لحماية الناس من مختلف الجرائم بناءً على تلك الخصوصية.

كل الشعوب تنتج وتتألق لتشـارك في الفعـل الحضـاري مـن خـلال خصوصيتها، فجذور ومنابع الكفاءة الإنتاجيـة اليابانيـة مـثلاً انبثقـت مـن الخصائص الديموغرافية والجغرافية بالجماعيـة والمشـاركة. إن زراعـة الأرز كغذاء رئيس لليابانيين قد تطلـب بنـاء وصـيانة نظـام ري يحتـاج إلى أيـدي عاملة كثيرة؛ ولـذلك فـإن زراعـة وحصـاد الأرز لا يمكـن مطلقـاً أن تـتم بكفاءة، إلا بتعاون ما يزيد عن عشـرين فـرداً أو أكثـر، ولا تسـتطيع الأسرة الواحدة منفردة إنتاج كفايتهـا، وهـذا مـا أدى بالثقافـة اليابانيـة إلى اعتبـار العمل المشترك قيمة وهدفاً وعزماً وعـادة تمسـك بهـا اليابـانيون منـذ آلاف السنين ليتحقق لهم البقاء عـلى قيـد الحيـاة. والسـؤال لمـاذا ازدادت الكفـاءة والإنتاجية لديهم بنسبة (440%) مقارنة بأمريكا خلال السنوات التي تلـت الحرب العالمية الثانية؟ إنها قيمة العمـل الجماعـي المشـترك، ولنـا في مجتمعنـا العربي الأولوية فيما يخص أدب المساكنة والجيرة في أن نبدع شيئاً مـا أو نقـدم نموذجاً ما للإنسانية حتى لا نعيش على هامش الفعل الحضاري.

فكر عالمياً وتحرك محلياً:

هذه السطور ليست دعوة لتطبيق شرطة المجتمع، أو استنساخ تجربـة معينة، فشرطة المجتمع ليست مفهوماً واحداً، ولكننـا مـن الـذين يروجـون للمقولة "فكر عالمياً وتحرك محلياً". فالحكمة ضالة المـؤمن، أو كـما جـاء في الحديث: "من سن سـنة حسـنة فلـه أجرهـا وأجـر مـن عمـل بهـا إلى يـوم

القيامة". فقد ظهرت الفكرة بشكل رسمي عام (1967) في أمريكا من خلال الحاجة إلى دور نشط وملتزم للمواطن (**Active and Involved**). ثم تطورت إلى فكرة المرور الراجل (**Foot Patrol**). ثم ذهب بعض الخبراء إلى أن منع الجريمة من مهام الحكومات المحلية والبلديات أكثر من الشرطة.

وقد تعددت صور وأنماط المشاركة في منع الجريمة عند الشعوب والدول. فظهرت فكرة (اللجان) وهي لجان التوعية لتنوير المواطنين (**councilling**)، وإبلاغ الشرطة عندما يكون هناك اشتباه بوجود غرباء في المجمع السكني. بعض الدول قامت بتنفيذ برنامج مشترك بين الشرطة والمواطنين، من خلال (اجتماع أسبوعي) لمناقشة الموقف الأمني. كما أن بعض الدول عملت على تنفيذ (برنامج مدرسي) يجتمع فيه بعض رجال الشرطة مع الآباء والمعلمين في الحي لمناقشة المشاكل المدرسية، التي ربما تؤدي إلى الانحراف، وكذلك التجمعات في الحدائق العامة لتنظيم لقاءات ودية بين الشرطة والمواطنين، أو إصدار صحيفة محلية (**Newsletter**). تحوي أخبار الحي الاجتماعية، وكل ما هو جديد في الساحة الجنائية والظواهر الجديدة بالمنطقة، ومن ثم توزع على الجيران.. هناك أيضاً تجربة نظام مراقبة المجمعات السكنية (**Block Watch**). وهو تنظيم لمجموعة من الجيران ما بين (10- 15 شخصاً). من الذين يبدون اهتماماً مشتركاً ضد الجريمة، ويطلب من كل واحد منهم أن يستضيف أحد اجتماعات المجموعة في منزله في اجتماع أسبوعي لمناقشة إصدار معلومات وإرشادات مكتوبة في شكل نشرات توزع على السكان. وفي موقف لافت للانتباه تعلن الحكومة عام 1978 ولأول مرة (أن المجموعات المنظمة للمواطنين في الأحياء تعتبر أمضى سلاح لمواجهة الجريمة المحلية).

معوقات الإبلاغ عن الجريمة:

في حدود مطالعتنا لم نرصد محاولة رسمية لشرطة المجتمع في الدول العربية،لكن ذلك لا يمنع التبشير بالفكرة فهناك زمن فاصل بين بزوغ الفكرة وزمن تطبيقها. نعم هناك دراسات عديدة في الوطن العربي وهي محاولات جديرة بالاحترام، لأنها تكشف عن اتجاهات المواطن للتعاون مع الجهات الأمنية وكذلك للكشف عن المعوقات التي تحول دون الإبلاغ عن الجريمة.

خرجت أغلب الدراسات في الوطن العربي بمجموعة من النتائج تميزت ببعدين بدا كل منهما متناقضاً مع الآخر، فمن جهة يؤيد الباحثون الإبلاغ عن الجريمة للكشف عنها والمساعدة في تفسيرها، ومن جهة أخرى يمتنعون عن الإبلاغ لاعتقادهم بطول الإجراءات الروتينية المتبعة في مراكز الشرطة بسبب تراكم المهام؛ مما يجعل المواطن يتردد لأن ذلك يكلفه جهداً ومالاً ويضطره للغياب عن مكان عمله، أو أن يتطور الموقف فيصبح المواطن الذي قام بالإبلاغ متورطاً في الجريمة ويذهب ضحية المعروف الذي قام به.

إن التحول نحو شرطة المجتمع يعكس في تقديرنا قفزة وتغيراً نحو ثقافة شرطية جديدة، أي التحول من رد الفعل على الحوادث الطارئة إلى المبادرة لمنع الجريمة. وختاماً نقول إن هذه السطور دعوة لزيادة وتشجيع المبادرات الشعبية لحفظ أمن المجتمع ولكن ضمن تقنين ومشورة وعمل جماعي، حتى نتجنب سلبيات الاجتهادات الفردية الخاطئة كما فعل جحا.

فقد رأى جحا رجلاً جريحاً إلى جنب البحر فهب لنجدته، ولما انتهى من مساعدته قام جحا بسحب الرجل ورماه في البحر، فقال الرجل: لماذا ساعدتني ثم رميتني في البحر؟ فرد جحا قائلاً: أنا من الذين يؤمنون بالقول المشهور: "افعل الخير وارمه في البحر".

عقلية القطيع

لا تزال دراسة أثر الجماعة على الفرد في وقتنا الراهن أمراً ضرورياً، ولا يأتي ذلك الاهتمام من قبيل الفضول المعرفي فقط، بل أصبح ضرورياً باعتبار أن تميز أفراد المجتمع ينعكس مباشرة على تميز وتألق المجتمع بكامله، وعلى كفاءة وأهلية الأمة لكي تساهم وتشارك في صناعة الحياة الإنسانية ولا تكون هامشية وخارج الفعل الحضاري!

ولعل من أفضل القراءات التي طالعناها واختصرت حالة الصراع بين الفرد وسطوة الجماعة في تسيير الأفراد وعدم استقلاليتهم مسرحية توفيق الحكيم (نهر الجنون) حيث قدمت المسرحية المشهد من خلال الشخص الذي كان يشرب من ذلك النهر، فيصاب بلوثة تجعله يبدو غريباً في نظر المجتمع فيهزأ منه وينبذه باعتباره متخلفاً، لكن بمرور الزمن تزايد عدد الشاربين (المجانين) وتناقص عدد (العقلاء) وبشكل سريع فانقلبت الصورة فأصبح (العقلاء) قلة تعرضت لسخرية الأكثرية (المجنونة) التي كانت تنظر إلى هذه الأقلية على أنها شاذة الأطوار، وتطور الوضع حتى لم يبقَ سوى شخص واحد فكان يأبى على نفسه أن يشرب من النهر حتى لا يفقد عقله وتميزه!، عاش ذلك الفرد مغترباً عن مجتمعه ولم يجد في نهاية الأمر إلا أن يشرب من ذلك النهر فيلتحق بالمجتمع الذي ينتمي ولا ينتمي إليه!

والسؤال هنا: كيف تهيمن الجماعة على الفرد وتسحقه حتى يصبح من الكائنات الداجنة؟ أي ضمن أفراد مجتمع الطاعة (مستر Yes).

الخصاء السيكولوجي:

تمثل عقدة الخصاء الذهني والنفسي الصورة الحية لعملية آلية الاغتراب في شخصية الإنسان، وهي انعكاس أيضاً لنتائج القمع والعنف والإكراه في التربية عبر المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، فإذا كان الخصاء هو القطع والبتر واجتثاث الأعضاء التناسلية المذكرة على المستوى الجسدي فإنه يمثل على المستوى النفسي والذهني خطورة حيث يبتر الإنسان فيها عقله فيتحقق الدمج والخنوع القهري مع عقلية القطيع!

ونظرية (القرود الخمسة) على بساطتها ومباشرتها وطرافتها، إلا أنها تقدم نموذجاً جديراً بالتوقف، وهي في تقديرنا فرضية سيكولوجية أكثر منها دراسة علمية وتقول هذه الفرضية: أحضر خمسة قرود، وضعها في قفص! وعلق في منتصف القفص حزمة موز، وضع تحتها سلماً، بعد مدة قصيرة ستجد أن قرداً ما من المجموعة سيعتلي السلم محاولاً الوصول إلى الموز، وحين يضع يده على الموز، أطلق رشاشاً من الماء الحار على القردة الأربعة الباقين وأرعبهم! بعد قليل سيحاول قرد آخر أن يعتلي نفس السلم ليصل إلى الموز، كرر نفس العملية رش القردة الباقين بالماء الحار! كرر العملية أكثر من مرة! بعد فترة ستجد أنه ما أن يحاول أي قرد أن يعتلي السلم للوصول إلى الموز ستمنعه المجموعة خوفاً من الماء الحار.

الآن أبعد الماء الحار وأخرج قرداً من الخمسة إلى خارج القفص، وضع مكانه قرداً جديداً (لنسميه سعدان) لم يعاصر ولم يشاهد رش الماء الحار، سرعان ما سيذهب سعدان إلى السلم لقطف الموز، حينها ستهب

مجموعة القردة المرعوبة من الماء الحار لمنعه وستهاجمه، بعد أكثر من محاولة سيتعلم سعدان أنه إن حاول قطف الموز سينال (علقة قرداتية) من باقي أفراد المجموعة. الآن أخرج قرداً ممن عاصروا حوادث رش الماء الحار (غير القرد سعدان) وأدخل قرداً جديداً عوضاً عنه، ستجد أن المشهد السابق نفسه سيتكرر من جديد، القرد الجديد يذهب إلى الموز، والقرود الباقية تنهال عليه ضرباً لمنعه، بما فيهم سعدان على الرغم من أنه لم يعاصر رش الماء ولا يدري لماذا ضربوه في السابق!! كل ما هنالك أنه تعلم أن لمس الموز يعني (علقة) على يد المجموعة، لذلك ستجده يشارك، ربما بحماس أكثر من غيره! (بكيل الكلمات والصفعات للقرد الجديد).

استمر بتكرار نفس الموضوع، أخرج قرداً ممن عاصروا حوادث رش الماء، وضع قرداً جديداً وسيتكرر نفس الموقف!! كرر هذا الأمر إلى أن تستبدل كل المجموعة القديمة ممن تعرضوا لرش الماء بقرود جديدة، في النهاية ستجد أن القرود ستستمر تنهال ضرباً على كل من يجرؤ على الاقتراب من السلم. لماذا؟ لا أحد منهم يدري!! لكن هذا ما وجدت المجموعة نفسها عليه منذ أن جاءت إلى هذه الحلبة الاجتماعية.

شريعة الراعي بلغة الخروف:

إن الناظر بالعين المبصرة لواقعنا الاجتماعي يلمس الحالة المضطربة في نمط التواصل مع المجتمع؛ فهناك من يميل إلى المجاملة الزائدة (المسايرة الاجتماعية) أو النقيض تماماً وهو الابتعاد والعزلة.

لا شك أن التعامل مع البشر يتم وفق درجات قد يكون أقصاها هو التعبير عن الرأي بحرية، لكن طبيعة الاختناق في التعبير عن الذات، عملت

على فرز قوالب سلوكية شاذة في مجتمعات الاستبداد الشرقي! هذا إذا تجاوزنا الحدود الإقليمية المحلية.

قد نتفق على محور الارتكاز في المسايرة الاجتماعية والمتمثل في طبيعة القمع والكبت الذي يتعرض له الطفل في الأسرة العربية والذي تحوّل مع مرور الزمن إلى عرف في مجتمعاتنا تحت شعار (فضيلة الطاعة) (مستر Yes) والمنحدر أساساً من ثقافة (تعليم المقهورين).

هذا النمط من الاستسلام للجماعة يستبطن في سلوك الأفراد عدم القدرة على التعبير عن ذواتهم، وقد ترسم في شكل سلطة العرف والتقاليد وهي سلطة نابعة من (القاعدة) أي من ثقافة الشارع والديوانية والنادي والمدرسة، والتي أسهمت بشكل مباشر في بناء وتأصيل حواجز نفسية تشكلت عبر فترات زمنية متلاحقة فتعذر معها نشوء أدب الاعتراض الراشد على جميع المستويات.

نلاحظ مثلاً أن الأبوين في المنزل يكافئان الولد المطيع، والمدرس يغرس بواسطة الدرجات قيمة الصمت الأبله والمسايرة التي تؤدي في النهاية إلى تخريج طلاب يتشابهون في كل الأشياء، أي استنساخ على طريقة (النعجة دولي) وكذلك الحال في سلطة الحاكم، والمدير في الشركة والمؤسسات (السلطة الفوقية)، هذا النوع من التسلط أي (السلطة الفوقية) له وضوح أكثر من النوع الأخر (سلطة العرف والتقاليد) وأقرب مثال على ذلك هو تصنيف من له رأي مخالف في جهة عمله، بحيث تلحقه تهمة العقوق والمشاكسة!! فالمطلوب موظف (مستر Yes) أما التسلط الثاني النابع من (العرف والتقاليد) فهو عصي على الرصد غير ملحوظ، وبين هذا

وذاك يتجسد معنى (الغربة!) ويبقى السؤال مترنحاً ما هي طبيعة الغربة الحقيقية؟ قد يصعب تعريفها في هذا الهامش الصحفي لكن قد يكون أحد معانيها: أن تشعر بالوحدة وسط الزحام!!

قد أفلح من تَبنَّك

يثير العنوان السابق الالتفات إلى ظاهرة آخذة في الانتشار الكاسح تتصل بعملية خلط الثقافة بالمال في البرامج التلفزيونية ضمن محاولة لاستقطاب الجماهير الشعبية الواسعة إلى الشاشة الصغيرة.

فعندما يجلس (المواطن) المنهك من عناء العمل الشاق وكسب قوت العيال أمام الشاشة بهدف ا لراحة والتسلية البريئة، يفاجأ بالمال وهو يخترق إدراكه ووعيه المسترخي فيعيد تنشيطه من جديد لكي تتحرك في وجدانه غريزة التملك والربح (من سيربح المليون؟ - وزنك ذهب ...إلخ).

علماء نفس الإعلام يفكرون دائماً في طرق جذب أكبر عدد من الناس عبر برامج الألعاب والتسلية فوجدوا في المال وسيلة لإزاحة الرتابة عن البرامج المملة فابتكروا طريقة جديدة تقوم على معادلة سمعية-بصرية بحيث يتم تفعيل دور المشاهد السلبي.

نعم لقد كانت البرامج قديماً تقوم على أساس مرسَل ومستقبل، أي علاقة باردة أو أحادية الاتصال بين المشاهد البارد حسياً وذهنياً من جهة والجهاز التلفزيوني المعبر عن الصور الناطقة والمتحركة من جهة أخرى. لكن القفزة الجديدة في عالم التلفزيون تمثلت في بناء جسر يربط بين العنصرين (المشاهد - التلفزيون) فتحول المشاهد التلفزيوني من مجرد مشاهد

للبرنامج يبث أمامه إلى شريك فيه، أي أن عملية المشاهدة لغمت (من حيث لا نعلم) بمشاركة لسنا طرفاً في تصميمها وإخراجها ولكننا شركاء في تنفيذها؟

هذا الانقلاب في علاقة الناس بالتلفزيون دشن خطورة إضافية وقوة خارقة لهذا الجهاز الصغير حيث إن المتنفذين والمتحكمين في هذه الظاهرة المعرفية المبتكرة غدت لديهم القدرة على طرح القضايا وتوجيه الأنظار إلى ما يرونه هاماً وضرورياً، وهو تحول هام للغاية في تقديري وذلك على الرغم من تسالم أو استسلام الناس أمام هذه الظاهرة[1].

وقد ساعد دخول المال على إنقاذ البرامج الجافة (التسلية - الثقافة) فكان بمثابة العنصر المغذي والأكثر إثارة في تحقيق الكمال للبرامج الجديدة وعلى الأخص عندما تشتد فصول الربح والخسارة وتتصاعد من خلال التفاعل مع الشركاء المتواجدين في داخل الأستوديو. (يجب ملاحظة درجة تفاعل المشاهدين!) والحقيقة أن الأمل قد راودنا في أن نستقطع جزءاً من وقت تلك البرامج كفاصل إعلاني ونقول لهم أن (المال):

- يستطيع أن يشتري السرير، ولا يستطيع أن يشتري النوم.
- يستطيع أن يشتري الكتب، ولا يستطيع أن يشتري العقول.
- يستطيع أن يشتري الطعام، ولا يستطيع أن يشتري الشهية.
- يستطيع أن يشتري الحلي، ولا يستطيع أن يشتري الجمال.
- يستطيع أن يشتري الدواء، ولا يستطيع أن يشتري الصحة.

---

[1] نشرت صحيفة (صنداي تلغراف) البريطانية تقريراً ذكرت فيه أن التلفزيون هو السلاح السحري الذي بواسطته يستطيع الغرب أن يحدث انقلاباً في الحياة الاجتماعية في الدول الإسلامية.

- يستطيع أن يشتري التسلية، ولا يستطيع أن يشتري السعادة.

لكن هذه الأمنيات الصغيرة لا تستطيع أن تقف أمام آلية إعلامية جبارة يقف وراءها رجال أعمال من أباطرة الأثرياء في العالم. والمؤسف أن هذه الفضائيات قد تمكنت من القيام بفعلين مراوغين في آن واحد أولهما: تحريك شهوة التملك وثانيهما توسيع دائرة المشاهدين؛ إذ غدا باستطاعة شرائح مختلفة من الناس المشاركة بل وحتى البسطاء منهم ومن داخل منازلهم ودون الحاجة إلى التنقل وقطع مسافات طويلة، كما أن هذه الشرائح ليست بحاجة إلى امتلاك شهادة علمية كبيرة أو ثقافة رزينة، فكل ما هو مطلوب في البرامج الثقافية الإجابة (بنعم) أو (بلا) وأن يختار المتسابق من بين عدة خيارات. فالبطل ليس العبقري أو المفكر المتألق بل هو الإنسان العادي والبسيط!!

الخطورة إذاً ليس في تسطيح الثقافة فقط، بل في دفع الناس البسطاء لكي يتبنوا قيم (العصر) وهي قيم التملك والثراء والشراء بحيث تبقى حلقة الاستهلاك مفتوحة وعلى الأخص عبر الزخم الكبير من الإعلانات والمقابلات المكثفة مع المشاهير وأصحاب الجاه الوفير من طبقة الأثرياء وبرامج (المال) مما يخلق لدى الإنسان العادي الرغبة في تقليد ومحاكاة هذه النماذج.

إن (فيروس) برامج عبادة المال لم يخترق المجتمعات العربية الإسلامية فقط لأن بداياتها انطلقت عبر محطة (بي. بي. سي) التلفزيونية حيث قدم أول برنامج ألعاب في (31) أيار (مايو) **1938** لكنه تطور في المرحلة اللاحقة ليفرز لنا جيلاً قد تغذى من تلك القيم التي تقدس (المال)

بحيث دفع ضريبته آباء وأبناء هذه المرحلة. ويعـزز كلامنـا السـابق دراسـة بريطانية نشرت أخيراً تشكو من مادية الأجيال الجديدة حيث شملت عشـرة آلاف طفل بين (6 - 16)، وتقول هذه الدراسة إن الطفل البريطاني هو أكثـر الأطفال أنانية في العالم وهذا ينذر بقدوم جيل على أتم الاسـتعداد للتضـحية بكل شيء في سبيل المادة، جيل لا يهمه الحب ولا الحياة العائلية ولا الصـداقة المهم (الرصيد بالبنك والثلاجة المليئـة بالأكـل والمزيـد مـن المـال). الطفـل الإنجليزي يتقاضى أجراً على كل شيء يفعله في المنـزل، يتقـاضى أجـراً عـلى التنظيف وعلى قص حشائش الحديقة وتنظيف سيارة العائلـة وفي ذهابـه إلى البقالـة المجـاورة، كـل شيء في حياتـه لـه تسـعيرة محـددة! والمثـل الأعـلى للمراهقين الإنجليز هو (توم هاتلي) وهو مليونير في الرابعة عشرة من عمـره ويعمل في تجارة السيارات المستعملة بعد أن ترك مقاعد الدراسة.

إنه عصر الشاشة الصغيرة، هذا ما يؤكده الأثريـاء وأبـاطرة الإعـلام الجدد الذي يشيحون النظر عـن الصـحافة المكتوبـة مـن أجـل الاسـتثمار في (المرئي) مما حدا ببعض الكتّاب العرب إلى الإعلان عن (موت دور المثقف). وهو عينه الذي جعل المفكر الفرنسي (ريجيه دوبريه) يثير إشكالاً عـلى حالـة الانفتاح الظاهري عبر الفضائيات في حين تنغلق عقلية المشاهد عـلى دائرتـه الصغيرة وعالمة المحدود، حيث يذكر دوبريه في كتابه (حياة الصورة وموتها) هل هي مصادفة أن يكـون الشـعب الأكثـر علاقـة بـالتلفزيون في العـالم أي الشعب الأمريكي هو أيضاً الشعب الأكثر محلية وانطوائية والأقل معرفة بـما يجري في العالم الخارجي؟

يستتبع ذلك السؤال أسئلة أخرى: أليست مهمة التلفزيون إلى جانب

التسلية توفير شروط لتقديم نماذج اجتماعية إيجابية؟ ما الذي نتوقعه من هذا الجيل بعد ذلك السيل العارم من الإعلانات والبرامج التي تؤكد فقط على قيمة المال؟ ما هي النتائج الوخيمة التي سوف تنعكس على الأسرة والمجتمع إذا استمر الحال على ما هو عليه؟

لقد بات من الضروري قرع الأجراس لكي يتوقف أهل الاختصاص عند (القيم الناشطة) في مجتمعنا ويقوموا بدراستها وبتشخيصها لكي يتم طرح مشروع إصلاحي يمكنه أن يسهم في معالجة المشكلة القائمة. فالمجتمع العربي يمر بمرحلة تحول ويتعرض لهزات لم يستطع حتى الآن أن يتعامل معها بمنظور علمي بحيث يستدمج قيمه الأصيلة ويتفاعل مع الجديد الإيجابي من الأحداث والمتغيرات.

وأرغب في هذه السطور أن أشيد بمحاولة متميزة لدراسة القيم السائدة في مجتمعنا العربي قام بها مكتب التربية العربي لدول الخليج بعنوان (القيم السلوكية) وهي جديرة بالقراءة من قبل الآباء وأهل الاختصاص من تربويين ومعلمين ومعلمات. وقد تناولت الدراسة أزمة القيم في المجتمع عامة وطلاب التعليم العام خاصة وشملت عينة واسعة من طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية في دول الخليج العربي، ويرجع سبب اختيار هذه الفئة لأنهم أكثر تعرضاً لصراع القيم وأكثر تأثراً بها باعتبار نظامهم القيمي في طور الارتقاء والتبلور. والشيء المميز لهذه الدراسة أنها لم تكتفِ بتشخيص الواقع ووصف الحال وهو مقبول بحثياً، لكن الدراسة قدمت آليات للعلاج، كما قدمت أنموذجاً متكاملاً لتعليم القيم في المجال المدرسي. كما تميزت الدراسة عن سابقاتها من الدراسات بأنها لم تركز فقط على القيم

الأخلاقية والدينية والاجتماعية ولكنها شملت قيماً إنسانية مهمة كالمساواة وعدم التعصب وحقوق الإنسان القيم الوطنية والفكرية.

والجميل في الدراسة أنها كشفت عن ترتيب القيم العشر الأكثر أهمية وهي: طاعة الوالدين - الأمانة - الرفق بالضعيف - رعاية المسنين - الصدق - السلام - الصداقة - صلة الرحم - الولاء للوطن - التواضع. وفيما يخص تحليل القيم السلبية أو الأقل أهمية أوضحت الدراسة أن الاتجاهات لدى الطلاب نحو القيم السالبة تمثلت في الآتي: عدم الاعتراف بالخطأ - اللهاث وراء امتلاك المال (وهو موضوع هذه السطور)- عدم تقبل النقد - المظهرية والتفاخر - رفض عمل المرأة - ضعف الحرية الفكرية - عدم التخطيط - ضعف الاهتمام بالنظام والترتيب للمنزل - ضعف الانفتاح على المعرفة والثقافات الأخرى - عدم الادخار وإضاعة المال.

أسئلة كثيرة أختمها بقصة توقفت عندها للكاتب المعروف (ستيفن ر.كوفي) في كتابه (إدارة الأولويات) يقول فيها: منذ عدة سنوات أعلن أحد الأشخاص لزملائه وجيرانه أن هدفه العام القادم هو أن يكسب مليون دولار. كان هذا الرجل من رجال الأعمال المبدعين الذين يؤمنون بالحكمة القائلة: "أعطني فكرة جيدة وأنا أكسب مليوناً". عمل هذا الرجل على تطوير وتسجيل منتج مبتكر، له علاقة بالرياضة البدنية ودار في كل المناطق ليبيعه. أحياناً كان يأخذ أحد أولاده معه لمدة أسبوع خلال هذه الرحلات، لكن زوجته اشتكت إليه من أخذ الأولاد معه لأنهم بعد عودتهم من الرحلة يصبحون أكثر إهمالاً لدروسهم وواجباتهم المدرسية؛ ولأن الأطفال يرون أن هذا الأسبوع مجرد إجازة فإن ذلك يمنعهم من القيام بما يجب أن يقوموا به.

في نهاية العام أعلن هذا الشخص أنه حقق هدفه وكسب المليون دولار ولكن بعد ذلك بقليل طلق زوجته وأدمن اثنان من أبنائه المخدرات بينما خرج الثالث ولم يعد. باختصار تفككت العائلة تماماً.

نحن جميعاً بحاجة إلى أقوال وحكم ونماذج سلوكية نتذكرها ولا مانع من وضع هذه العبارات أمام أعيننا لكي نخفف من تأثير (المفروض) علينا؛ ولكي تنغرس تلك الأشياء وتستقر في نفوسنا وفي جانب اللاوعي من عقولنا، ومن بين تلك العبارات الجميلة التي كنت ولا أزال أشتهي أن تعلق في مزارعنا ومصانعنا ومدارسنا وبيوتنا حكمة (للإمام علي) يقول فيها: "أقل الناس قيمة أقلهم علماً".

قراءة نقدية في مبدأ رفض التغيير

ترتبط مسألة رفض التغيير في علم النفس الاجتماعي بما يعرف بالاتجاهات المحافظة (conservatism) التي تعارض كل أشكال التغيير التي تلامس القيم والعادات التقليدية الموروثة. ويرتكز الاتجاه المحافظ في موقفه على قناعة تفيد أنه على الرغم من وجود بعض نواحي القصور في الوضع القائم إلا أن هذا الوضع قد اكتسب قيمة ثابتة ويمكن من خلال هذا الثبات تقديم براهين على صحة الوضع القائم وصلاحيته للمستقبل.

ولكي نبتعد عن الكلام النظري المجرد نستدعي مثالاً واقعياً يتصل (بالمناهج)، فمنذ أحداث سبتمبر 2001 ومسألة (التغيير والإصلاح) تدور في حلقة مفرغة وعلى الخصوص من قبل الداعين إلى عدم المساس بالمناهج الدراسية، وتذهب قناعات شريحة من يرفض التغيير إلى أن المناهج الدراسية ليست بحاجة إلى تغيير أو تعديل وإن الرغبة في التغيير قادمة من الخارج وبالتحديد من أمريكا، والقضية الأخرى أن هذه الفئة التي لا ترى ضرورة التغيير تبالغ في خطورة تطوير المناهج وكأن تطوير وتغيير المناهج الدراسية يعني مباشرة المساس بالقرآن.

نحن نعتقد أن فرض التغيير من الخارج أمر يستهجنه كل مواطن شريف وعلى الأخص إذا جاء من قوة عاتية وغير عادلة كأميركا. والمناهج

التربوية التي يراد تغييرها هي إحدى مفردات السيادة التي لا نسمح ولا يصح التفريط بها، وقد جاء في التقرير الأميركي الشهير (أمة معرضة للخطر a nation at risk) ما يعزز حديثنا حين صدر في بداية الثمانينيات وتحديداً في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق (رونالد ريغن). هذا التقرير الذي حلل واقع التعليم في أمريكا والذي ورد فيه: (إن التدخل في صناعة مناهج دولة ما أمر يعادل إعلان الحرب عليها)، وهو كما يقال: (من فمك أدينك).

بين التغيير المخطط والتغيير الطارئ:

نقول إن التعاطي مع مسألة تغيير المناهج يجب أن تتم بعيداً عن عقدة الوصاية أو النظرية التآمرية (conspiracy theory) والتي سوف نخصص لها وقفة تحليلية متأنية في محطة قادمة، بل يجب أن نتعاطى مع (الدعوة إلى التغيير) على أنها فرصة حقيقية للمفكر (العربي/ المسلم) للتأمل في نقاط الضعف في مناهجنا، كما أنها هدية ثمينة ومجانية يقدمها الطرف الأخر (أمريكا أو غيرها) أو بحسب (علي حرب) حين ميز بين المنطق النضالي والمنطق المعرفي مبيناً أن الخلط بينهما هو الكارثة حيث قال في مقال له: "إن من أكثر العوائق التي عرقلت المشاريع الفكرية في العالم العربي طغيان صور النبي ﷺ والداعية والمحرر والمبشر على عقول المشتغلين في فروع العلم وميادين البحث" أي فئة أصحاب الإيديولوجية الكارهة للآخر حتى لو نطق حقاً!

وفيما يخص التوقيت في الدعوة إلى التغيير (أي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر) يجب أن لا يشكل الهاجس الأقوى في الدفاع عن قضية

مهمة ولا يمنعنا شنآن قوم على أن نعدل، نعدل في التمييز بين دعوتهم التي قد يحق للبعض أن يشكك بها وبين أن تكون الدعوة إلى التغيير (فرصة حقيقية) للمفكر وصانع القرار (العربي/ المسلم) لنبش المناهج التي كانت بشكل مباشر أو غير مباشر حاضنة للعنف والتعصب وإقصاء الآخر.

نعم في علم إستراتيجيات التغيير (**strategic change**) يتم التمييز بين نوعين من التغيير: الأول تغيير مخطط في قبال تغيير طارئ (**planned versus emergent change**) وهو مرتبط بالرؤية التي تصنع إستراتيجيات تغيير مخطط، وهي تلك العمليات التي تحوي قدراً من الانتقال السلس من رؤية إستراتيجية واضحة سابقة إلى وضع مستقبلي مرغوب.

إن تغيير وتطوير المناهج مسألة اعتيادية لدى غالبية شعوب العالم، فقد قام رئيس وزراء اليابان عام **1984** بتشكيل (المجلس المؤقت للإصلاح التربوي)، كان هذا المجلس يهدف إلى إجراء البحوث والدراسات التي من شأنها العمل على الإصلاح التربوي وهذه الحركة الإصلاحية لم تكن الأولى في اليابان بل يعتبرها اليابانيون الحركة الثالثة في مسيرة التعليم والتحديث.

ومن حسن الطالع أن أمريكا كانت تبحث في حينها عن رؤية جديدة لنظامها التربوي أي عام **1984**م حيث تم المشروع عبر (اللجنة القومية للتفوق في التعليم)، وقد عرضت نتائج دراستها على وزير التربية الأمريكي في التقرير المشهور الذي أشرنا له (أمة معرضة للخطر **a nation at risk**). عندها طلبت أمريكا من اليابان أن تدرس مناهجها وتدلها على نقاط الضعف (النقد من الخارج) وقد وافقت اليابان واشترطت شرطاً غريباً وهو أن تقوم أمريكا أيضاً بمراجعة مناهج اليابان الدراسية، فتوصل وزير التربية الياباني مع وزير التربية الأمريكي إلى اتفاق لتنظيم دراسة مشتركة حول

المناهج في كلا الدولتين والخروج بنتائج يعود نفعها على الأمتين، وقد تم ذلك على رغم الخلاف بين الدولتين أو لنقل رغم الخصومة الاقتصادية المعلنة بين الدولتين، إنه نوع من التبني للمقولة التي أطلقها تشرشل: "أنا لا أفتخر بأني لم أبدل رأيي أبداً حول الأشياء أو حول الأشخاص لأن عدم تبديل الرأي هو حماقة تماثل رفض الإنسان لأن يتعلم".

الاهتمام بالمستقبل:

علّق جمال الدين الأفغاني ذات مرة قائلاً بأن: "العربي.. يعجب بماضيه وأسلافه، وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله!". لذلك نميل بشدة إلى تلك الدراسات التي تهتم بمعالجة أزمة منهج التفكير في مجتمعنا العربي، ولعل محاولة المفكر الاجتماعي السوري (حليم بركات) في كتابه (الهوية وأزمة الحداثة والوعي التقليدي) فيها ملامسة لأزمة منهج التفكير حيث دعا إلى العمل من أجل (إحداث تغيير سريع وشامل وعميق يتناول البيئات الاجتماعية المختلفة والقيم والمؤسسات التي تعيش في كنفها).

إن علينا أن نعيد النظر ملياً في طريقة معالجة تغيير المناهج - وإن كنا نميل لاستخدام لفظ التطوير-وأن لا نلقي التبعية على الآخر ونهرب من مواجهة الذات. فلا مناص من الاعتراف بأن نمو الخطر الذي يمثله تيار العنف والتعصب هو انعكاس لأزمة ثقافية لابد من تفكيكها وإعادة قراءتها، فقد امتد ليطال الجميع بما فيهم الحكومات. نعم لقد استفادت الحكومات جميعها من تلك الأزمة أثناء الحرب الباردة وأثناء حرب الخليج الأولى مما أفرز تيارات متشددة ومعبأة طائفياً، لكن هذه الحكومات لم تتحرك لحماية الناس وخصوصاً الأقليات (الأكثر تضرراً) إلا بعد أن لامس الخطر

أجهزتها الأمنية.

يخطئ المثقفون إذا لم يلاحظوا أن (مقاومة التغيير) كظاهرة إنسانية لا تستفحل في مجتمعنا العربي بفعل الحماية السياسية فقط أي (حماية السلطة ومؤسساتها ورقابة المؤسسة الدينية) وإنما تتضخم - وهو الأكثر خطورة - بفعل الانصياع الذاتي الإرادي من قبل المفكرين والمثقفين أنفسهم، فهي ظاهرة قديمة ومستمرة على مستوى شرائح المجتمع؛ والسبب في ذلك أن هناك علاقة شرطية بين التغيير وتقديس الموروث، فرب تراث ليس بذي شأن، فقد جاء في الرواية عن معمر بن خلاد أن الإمام علي اشترى داراً وأمر مولى له أن يتحول إليها وقال له: إن منزلك ضيق فقال المولى: قد أحدث هذه الدار أبي! فقال الإمام علي: إن كان أبوك أحمق فلا ينبغي أن تكون مثله![1].

الأمر الآخر أن هناك فئة محافظة تقف ضد التغيير والتطوير مطلقاً بمعنى أن سيكولوجية الثقافات المحافظة تحتمي بالسكون والرتابة وتتوجس من الجديد! وتتسلح بالعقلية التآمرية وثقافة (سد الذرائع) والتي تشكل في تقديرنا الثقافة التحتية لكثير من القرارات الرافضة للتغيير، علماً بأن هذه الثقافة تشل حركة تطور المجتمع، وقد علق ابن حزم ذات مرة قائلاً: "لو أن سد الذرائع صحيح لوجب قطع ذكور الرجال منعاً للزنى".

نحن اليوم بأمس الحاجة إلى فتح الذرائع الصالحة والنافعة للاستفادة من تجارب الآخرين الكونية والاجتماعية ولنا في تجربتنا الإسلامية المثال والقدوة. فقد جاء عن جذامة بنت وهب قالت: حضرت رسول الله في الناس وهو يقول: "لقد هممت أن أنهي عن الغيلة (جماع المرأة المرضع)

[1] وسائل الشيعة - أحكام المسكن.

فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر ذلك أولادهم شيئاً" بمعنى أن النبي ﷺ أراد أن ينهى المسلمين عن نكاح المرضع، ولكنه علم أن الفرس والروم يفعلون ذلك فلا يترتب عليه ضرر ولذلك ترك النهي وأخذ بتجربة الروم والفرس باعتبارها تجربة إنسانية وهي قاعدة أو سنة في الاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى[1].

عندما نفكك الخطاب الرافض لعملية تغيير المناهج سوف نرصد أنه خطاب يخلط، أو لنقل: إنه لا يميز بين الحملة الإعلامية الغربية في بعدها السياسي وبين الدروس المستفادة التي يمكننا تعلمها أو تأملها، إنه الهدوء في تناول الفكرة بالفكرة فيتشابك الضوء بالضوء، فنتسلل عبره إلى النهار.

إننا عندما نرفض التغيير والتطوير تنمو بداخلنا قداسة لرأينا فلا نحادث إلا ذواتنا ولا نطالع إلا أقوالنا فنصبح مثل (الديك المغرور) الذي يعتقد أن الشمس لا تشرق إلا لكي تستمع إلى صياحه في الصباح!

---

[1]انظر صحيح مسلم الجزء الثاني ـــ 1066، وكذلك معاني الأخبار للصدوق ص 283.

لماذا يموت الإبداع في وطننا العربي؟

جميعنا يتذكر قصة ذلك الغراب الذي جاء يبحث عن الماء فوجد جرة في قعرها قليل من الماء فهداه تفكيره إلى أن يجمع كمية من الحصى ويلقيها في الجرة كي يرتفع منسوب الماء فيشرب منها ويرتوي.

إن الموقف الجديد في هذه القصة هو عدم استسلام الغراب إلى حالة العطش وكذلك عدم لجوئه إلى الطرق التقليدية في الحلول وهي البحث عن الماء في مكان آخر، وفي المقابل لو ذهب أحدهم ليشرب الماء ولكنه لم يجد آنية يحمل بها الماء ثم عمد إلى ورقة وقام بطيها وتناول الماء فإنه أيضاً لم يستسلم إلى حالة العطش ولم يشتك أو يتعذر بعدم وجود آنية.

إن البحث عن بدائل عملية أو محاولة توظيف التجارب التي نمر بها وتختزنها ذاكرتنا فنقوم بإعادة إنتاجها بصور مختلفة في مواقف جديدة هو بالتأكيد نوع من الابتكار. في تقديرنا لكي نكون مبدعين نحن بحاجة إلى مفتاح (التمكين وتحرير الفعل) والتمكين كمصطلح إداري دخل في قاموس اللغة العربية عام 1994 على أثر تعريب إحدى الشركات العربية لكلمة Empowerment الأمريكية ويقصد بالتمكين تفويض الصلاحيات والمسؤوليات "للعاملين" وتوفير الموارد الضرورية واللازمة لأداء الأعمال وكذلك منحهم الثقة دون حشر أنوف الرقابة وإشعارهم من نواح معنوية

أنهم تحت المتابعة لتصيد الأخطاء. فلا يمكننا أن نقول للإنسان المحاط بقيود العادة والعرف أنت حر، أنت قوي، عليك أن تحلق في الفضاء وهو مسجون، كم مرة يسمع (المعلم والموظف والابن) هتافات مثل: أبدع، افعل، بينما الواقع يقول له: لا تقدم على هذه الخطوة قبل أن يؤذن لك ولا تنفق مبلغاً يزيد على كذا دون إذن مسبق!

عبقرية المكان:

لا أحد يعرف بالضبط من أين تأتي الأفكار المبتكرة ولا من أين تحصل مثل هذه الإنارة، فهي تختلف من شخص إلى آخر. على أن المهتمين بهذا الجانب كشفوا أن الأفكار المبتكرة تأتي على الأغلب من ثلاثة أماكن تبدأ بحرف (B) وهي: الحمام (**Bathroom**) والفراش (**Bed**) والحافلة (**Bus**).

ونحن نضيف موقعاً آخر للإبداع، إنها المعسكرات الكشفية والرحلات! فهناك مناخ إبداعي يسمح للناس بالإبداع والابتكار دون قيود وشروط، كما أنه لا توجد كلمات تحد من العملية الإبداعية (النجاح ليس مضموناً - الفكرة غريبة - لن يسمحوا لنا بفعل ذلك - لا توجد ميزانية - إنها فكرة سخيفة - لا يمكن تطبيقها في الواقع - لقد سمعت بها من قبل ... إلخ).

في كثير من الرحلات التي يخرج فيها الأصدقاء، يكون هناك صديق نستطيع أن نطلق عليه صفة (الإنسان المبدع)، إنه متميز في طرح وصناعة البدائل، فعندما يصل الجميع إلى منطقة خلوية ويتم وضع الخيام وتفاجأ الجماعة بنقص ما في مستلزمات الرحلة، على سبيل المثال في غياب أعواد

الثقاب ما هي البدائل؟ غالباً ما يبدأ ذلك المبدع وبشكل ملفت للجميع: ماذا عن قداحة السجائر في السيارة؟ ماذا عن الاحتكاك بين قطعتي حجر؟ هل يمكن الاعتماد على عدسة مكبرة في تركيز أشعة الشمس على ورقة لإشعالها؟ إنه سيل متدفق من الحلول والبدائل.

نحن تعودنا في ثقافتنا السائدة أن ننتقد الحلول والابتكارات الصغيرة وهذا من الأخطاء الشائعة في مجتمعاتنا، عندما تتعاطى مع العملية الإبداعية وهي ثقافة مغايرة لما يتم تعزيزه في الاتجاهات العالمية حيث التأكيد على أن موضوع الإبداع يمتد من ابتكار غطاء معجون الأسنان إلى صناعة المركبة الفضائية! لم نتعود صناعة البدائل وطرح الحلول (فن الممكن) لقد تعودنا التهجم والنقد للحلول المطروحة واستصغار رأي وجهود الآخرين إلى درجة الاستهتار والعبث!

خلال عشرين عاماً وبالتحديد بين عامي 1980 و1999م سجلت تسع دول عربية (370) براءة اختراع فقط لدى مكتب الاختراعات، وفي المدة ذاتها سجلت كوريا وحدها (16328) براءة اختراع أي أكثر من (44) ضعفاً! وهذه الأرقام تقول لنا يجب أن نطهر أنفسنا من حمى الشعارات!

فكيف يمكن أن يحدث الإبداع ومؤسساتنا التربوية تمارس تزييف وعي الطلاب؟ وما تزال المدارس رغم كل ما يكتب ويقال تمارس نماذج من التخلف، وما يزال الطالب يكتب اسمه على الوسيلة التربوية وتزين باسم الأستاذ (المشرف) الذي لا يعلم كم تكلفت تلك الأسرة الفقيرة؟ وكل ذلك يتم بموافقة ساذجة من قبل المديرين الذين يقبعون في مستنقع البيروقراطية والروتين، وكذلك الطالبات اللاتي يدفعن مبالغ طائلة على الأعمال

الفنية التي ليست لها علاقة بالمنجز الابتكاري. إنه مشهد يتكرر والمؤسف أن هذا التزييف سوف يستمر ويستمر.

الفرق بين التركيز على المشكلة والتركيز على الحل:

كل الدول التي تقدمت كان رصيدها من الإبداع أكبر من رصيدها من أي من الموارد البشرية والمادية والعكس صحيح، فهناك دول قل سكانها وتقدمت مثل سنغافورة وهناك دول زاد سكانها وتأخرت مثل الهند، وهناك دول قلت مواردها وتقدمت مثل اليابان وهناك دول زادت مواردها وهي مديونة مثل بعض دول الخليج العربي، وهناك دول قلت مساحتها وتقدمت مثل سويسرا وهناك دول زادت مساحتها وتأخرت ... والقارئ ذكي ويستطيع أن يستكمل بخياله الواسع المعادلة التي نتحدث عنها!

نحن هنا نبشر بمعادلة جديدة وندعو إلى تغيير معادلة الدول والموارد، ولعل في تجربة ماليزيا ما يدعو إلى التفاؤل ونتمنى لها الاستمرار فقد تحولت ماليزيا التي يبلغ تعداد سكانها (23) مليون نسمة فقط إلى مصدر اقتصادي ذي نفوذ وتأثير حيث يزيد معدل نموها السنوي على ثلاثة في المئة وتصدر من السلع ما تزيد قيمته على (100) مليار دولار وهو يعادل ما تصدره الهند ويساوي ما تصدره كل من إسرائيل وإيران وتركيا مجتمعة.

تجارب الدول تقول لنا (الإبداع أولاً) قبل القدرة المادية، فهناك تجربة تخص أمريكا وروسيا وتتعلق بأبحاث الفضاء، فمن المعروف أن الفضاء خال من الجاذبية وقد جابهت الدول التي أرسلت رواداً فضائيين أن أقلام الحبر لا تكتب بسبب عدم وجود جاذبية (الحبر لا يسيل بدون جاذبية)، كيف تعامل الأمريكيون والروس مع هذه المشكلة؟ لحل هذه

المشكلة طلبت ناسا لأبحاث الفضاء (الأمريكية) من شركة أندرسون للاستشارات، (حالياً أكسينتر)، حلاً لهذه المشكلة، استغرق الحل عقداً من الزمان و12 مليون دولار اخترعوا فيها قلماً يكتب بدون جاذبية، بطريقة مقلوبة، تحت الماء، وعلى أي سطح حتى على الكريستال وفي درجة حرارة من صفر إلى 300 درجة مئوية. أما الروس فاستخدموا أقلام الرصاص لحل هذه المشكلة وهذا هو الفرق بين من يركز على المشكلة ومن يركز على الحل!!

المناخ الحر للإبداع:

إذاً نحن بحاجة إلى معادلات جديدة وبحاجة إلى إعادة النظر في ثقافة الإبداع فهناك خلط بين الإبداع والأفكار المجنونة، فالتفكير الابتكاري لا يعني التفكير المجنون ولا يعني الطلقات العشوائية للمدفع الرشاش نطلقها على أمل أن تكون واحدة منها ذات فائدة. نعم قد يبدو على الفكرة الابتكارية شيء من الغرابة والخروج عن المألوف كما هو الحال في قصة الغراب، لكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى استخلاص أن الابتكار قائم على الأفكار المجنونة، فالتوجه العالمي الراهن يركز على بناء ثقافة (التدريب على التفكير الابتكاري).

يقول المفكر المعروف قائد مدرسة التفكير الابتكاري في العصر الحديث (إدوارد دي بونو) منتقداً فكرة الربط بين التفكير الابتكاري والجنون: (إذا أنت جمعت ألف قرد وأعطيت كل واحد منهم آلة كاتبة تكون واهماً إذا تصورت أنه سيكون بإمكان واحد منهم أن يكتب يوماً مسرحية لشكسبير)! إنها دعوة صريحة للتدريب على التفكير المبتكر.

إذاً التفكير الابتكاري لا يعني الجنون بل يحتاج إلى شروط منها (المناخ الحر) الذي تتوفر فيه الجرأة والطلاقة الفكرية وكذلك إمكانية أن يتدرب عليه العمال في المصانع والطلاب في المدارس والأبناء في البيوت. إن التميز في التفكير يقوم على أساس المزج بين (العلم والمهارة والسلوك). فالعلم والمهارة أمور مكتسبة ويبقى (السلوك) الذي اختلف العلماء حول اكتسابه ووراثته فطرياً، والواقع أن السلوك ممكن أن يكون فطرياً، وممكن أن يكون مكتسباً والدليل قول الرسول ﷺ للأحنف بن قيس: "فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة". فقال الأحنف بن قيس: أهما خصلتان تخلقت بهما أم خصلتان جبلني الله عليهما؟ فقال الرسول ﷺ: بل هي خصلتان جبلك الله عليهما. فقال الأحنف: الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله ورسوله. وفي الوقت نفسه قال الرسول ﷺ: إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم. وهي دعوة من موروثنا المقدس إلى تغيير العادات السيئة المتحكمة واكتساب طرق وأنماط سلوكية جديدة ولن يتم ذلك إلا بوجود مناخ حر للإبداع (فالعقل كالباراشوت (المظلة) لا يعمل إلا إذا كان مفتوحاً، وهكذا عبر (الطهطهاوي): ليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر والمصنع.

لماذا تقدم المسلمون في ماليزيا وتأخروا في الوطن العربي؟

إن التجربة الماليزية تتميز بكثير من الدروس والعبر السياسية والاجتماعية والعرقية والثقافية والتي من الممكن أن تأخذ بها الدول النامية ومنها بالطبع (الدول العربية) كي تنهض من كبوة التخلف والتبعية.

حضور البوصلة في المشروع الوطني:

عندما يذهب الإنسان في ماليزيا إلى أي موقع إعلامي أو محفل علمي في المدارس والجامعات ومراكز التدريب أو عند الجلوس مع المثقفين الماليزيين يلاحظ أن الجميع يتحدث وبشكل تلقائي عن (vision 2020) وهي اختصار للخطة التي وضعها مهندس التغيير والتحول في ماليزيا (مهاتير محمد) والتي تنص على أن ماليزيا وبحلول عام 2020 ميلادي تكون قد بلغت مصاف الدول المتقدمة. إن حضور الرؤية الواضحة في إطار المشروع الوطني يمثل في تقديرنا (البوصلة) الهادية للجميع ويحدد للمواطنين طبيعة الأرض التي يقفون عليها والانتماء الذي يعبرون عنه والأهداف التي يسعون إليها، فإنه من أخطر إفرازات الحال في واقعنا العربي هو مرحلة (اللامشروع) حيث تختلط المقدمات بالنتائج ومن ثم

يستسلم المواطن والمؤسسات الوطنية والمدنية وقطاعات عريضة للحيرة والضياع. وذلك أن أي قافلة حين تفقد (بوصلتها) فمن الطبيعي أن تضل طريقها.

وقد تحدثنا ذات مرة عن تجارب الدول وقلنا أن (الرؤية الإبداعية) تأتي قبل القدرة المادية، وهذا عيناً ما فعلته (ماليزيا) فكل الدول التي تقدمت كان رصيدها من الإبداع أكبر من رصيدها من أي من الموارد البشرية والعكس صحيح، فهناك دول قل سكانها وتقدمت مثل سنغافورة، وهناك دول زاد سكانها وتأخرت مثل الهند، وهناك دول قلّت مواردها وتقدمت مثل اليابان، وهناك دول زادت مواردها وهي مديونة مثل دول الخليج العربي، وهناك دول قلّت مساحتها وتقدمت مثل سويسرا، وهناك دول زادت مساحتها وتأخرت ...إلخ.

إذاً هناك معادلة جديدة (للدول والموارد) ترتكز على وجود (عقل مفكر) يرسم خريطة ويضع بوصلة على غرار التجربة الماليزية التي من الممكن أن يستفاد منها عربياً، فقد تحولت ماليزيا التي يبلغ عدد سكانها (23) مليون نسمة فقط إلى مصدر اقتصادي ذي نفوذ حيث تصدر من السلع ما تزيد قيمته على (100) مليار دولار وهو يعادل ما تصدره الهند ذات المليار نسمة!! وتعادل ما تصدره كل من إسرائيل وإيران وأمريكا مجتمعة!!

المدرسة الذكية:

على الرغم من أن (مهاتير محمد) قد تخرج من كلية الطب في سنغافورة ومارس مهنة الطب إلا أن الرؤية السياسية كانت حاضرة في

حركته، كما أن معالجته لم تقتصر على أمراض الجسد بل كانت معالجته للأمراض الاجتماعية والسياسية أكثر أهمية في مشوار حياته. لقد بدأ تدرجه التصاعدي من أسرة فقيرة حيث كان الأصغر بين إخوته التسعة وترقى ليكون عضواً في البرلمان ثم وزيراً للتعليم فقام بتطبيق رؤيته حول ما يطلق عليه (السياسة التعليمية الجديدة) كما تولى وزارة الصناعة والتجارة ثم أصبح رئيساً للوزراء بالانتخاب، ولا بد أن نسجل هنا أن (مهاتير محمد) قد ترك السلطة طوعاً بعد تأسيسه لبنى تحتية عرقية واجتماعية ناجحة، كما قدم نموذجاً لعدم التشبث بالسلطة حتى آخر رمق في الحياة!! عمد (مهاتير محمد) في خطته (رؤية 2020) إلى الاهتمام بالتعليم كمحور هام في مشروع النهوض بماليزيا فرمز للتعليم في هذه الخطة (the education act 1996) ومن أهم أهداف هذه الخطة إدخال الحاسب الآلي والارتباط بشبكة الإنترنت في كل فصل دراسي من فصول المدارس. وفعلاً لم تكن تلك مجرد شعارات كما هو الحال لدينا حيث تشير تقارير الخطط الخمسية أن إحدى دول الخليج تتحدث عن جودة التعليم، لكن واقع الحال يقول: إن أكثر من (60%) من المباني المدرسية مستأجرة! بل إن غياب رؤية واضحة في وزارات التربية والتعليم في وطننا العربي جعل المواطن مندهشاً من التخبط في تطبيق نظريات وأفكار يتم التراجع عنها، فيكون الأبناء عرضة أو محطة للتجارب المرتجلة أو بتعبير أكثر رقياً وتحضراً القبول بتحويل الأبناء إلى (فئران معامل)!! وعوداً إلى التجربة الماليزية فقد بلغت نسبة المدارس المربوطة بشبكة الإنترنت أكثر من (90%) وفي الفصول الدراسية (45%) وتسمى المدارس الماليزية التي تطبق التقنية في

الفصـول الدراسـية (المـدارس الذكيـة) (smart schools). كـما أعلـن في ماليزيا عن انتهاء عصـر الكتاب المدرسي التقليدي حيـث تـم تطبيـق فكـرة الكتاب الإلكتروني.

التسامح الديني:

يتألف المجتمع الماليزي مـن ثـلاث مجموعـات عرقيـة أساسـية هـي المالاي (50%) والصينيون (30%) والهنود (10%)، فعندما تقـوم بزيـارة إلى هذا البلد فإنك تجد المسجد إلى جانب الكنيسة والمعبد! أمـا في مجتمعاتنـا العربية فالمطلوب أن تتم برمجة النـاس حتـى في اللبـاس والشـكل والتفكـير فيصبحون متشابهين في كل شيء أي استنساخ البشـر عـلى طريقـة (النعجـة دولي!!).

فالماليزيون يفتخرون بتعدد دياناتهم وأعراقهم، فحرية الدين مكفولـة للجميع بإرادة قوية من قبل رأس الهرم الـديني والسـياسي، بـل يشـعر كـل ماليزي بالاعتزاز بهذه التركيبة التي كانت السبب في إطـلاق عبـارة ماليزيـا (آسيا الحقيقية) باعتبارها تضم كافة أطياف الحياة الدينية والثقافية المتناقضـة في هذه المساحة الجغرافية الصغيرة ولكن بدون عراك وتوجس.

هذا التسامح الـديني والاعـتراف المتبـادل بـين الطوائـف والأعـراق المختلفة لم يأتِ من فراغ، فبعد سياسة الإصلاح الاقتصادي التي امتدت مـن (1970- 1990م) اهتمت خطة (رؤية 2020م) بتحسـين الأحـوال المعيشـية والتعليمية والصـحية للسـكان الأصـليين في محاولـة لتأكيـد وتثبيـت مبـدأ (العدالة الاجتماعية للجميع). ومعلوم تاريخياً أن (المالاني) يمسكون بناصـية السلطة السياسية متمثلة في حكـم ملـك ماليزيـا وسـلاطين الولايـات، أمـا

الصينيون فقد تمتعوا تقليدياً بالهيمنة الاقتصادية؛ لذا كانت إستراتيجية (مهاتير) بمثابة الجسر الذي حقق النجاح فرفع معدلات التنمية لتحسين أوضاع (المالاني) المسلمين وإعطائهم مزيداً من فرص الترقي في الوظائف وكذلك الدخول في ميادين الأنشطة الاقتصادية دون الإضرار بالعناصر العرقية الأخرى. بل إن (مهاتير) دعا مسلمي ماليزيا وبدون الشعور بعقدة النقص إلى تعلم الكفاءة الصينية في العمل المنضبط. وهكذا ترسمت ملامح وسمات (عبقرية التجربة الماليزية) من خلال رؤية واضحة للإصلاح الاقتصادي وتثبيت مبدأ التسامح الديني وتحقيق العدالة الاجتماعية على مستوى - الداخل - وفي الوقت نفسه الانفتاح - دون وجل - على الخارج فجمعت ماليزيا بذلك بين التدين والعصرنة، ويحق لجميع الشعوب أن تتعلم من بعضها، فالمهم عدم الاكتفاء بالتفرج خصوصاً وأنه يتكرر كثيراً في مجال التدريب الابتكاري مقولة: يجب أن لا تقف عند حد الإعجاب بالمبدعين: كن واحداً منهم.

مؤسساتنا الثقافية الباردة
والأقلام الجامحة العصية على الترويض!!

ربما لا تكون مصادفة تلك العلاقة العكسية بين رتابة وبرود نشاط المؤسسات الثقافية الرسمية وشبه الرسمية وبين انكفاء وهروب الأقلام الشابة الواعدة إلى أدواتها الخاصة في التعبير عن ذواتها المسكونة بالديناميكية في العمل والبراعة في تصميم حراك ثقافي متميز يتسم بعدم قبوله لما يعرض أو يفرض عليه!

شعبنة الثقافة:

بالنظر إلى الحياة الثقافية في وطننا العربي عبر المؤسسات الرسمية يمكن ملاحظة العديد من الإنجازات والأعمال الموزعة هنا وهناك وبمواصفات تتفق فقط مع النزعة البيروقراطية، وفي الوقت نفسه يمكن أيضاً بوضوح ملاحظة عزلة هذه البرامج والأنشطة ونخبويتها!

إن المواطن العادي بحاجة إلى من (يشعبن له الثقافة) أي يجعلها شعبية تتصل بطموحه وحاجته وتطلعاته، فإذا كانت الحاجات المادية (الاستهلاكية) تشبع وتؤمن استمرار حياته، فإن الثقافة تلبي حاجات العقل والنفس وهي على حد تعبير عالم النفس (ماسلو) الحاجات العليا

للإنسان. إنها تلك الحاجات التي تعمل على تحويل الإنسان من كائن غريزي أسير ربقة البطن والفرج كالأرانب والطيور إلى إنسان مبدع منتج له إسهاماته فلا يكون وجوده ودوره على هامش الفعل الحضاري.

ولعله قدر محتوم أن تكون العلاقة بين المثقف ومتخذ القرار السياسي مسكونة بالتوتر والتنازع على مر العصور؛ والدليل ما نشهده في دول غربية عريقة في الديمقراطية حيث لا يزال يناكف مثقفوها سياسييها؛ فالمثقف بتكوينه منحاز للمثالية وللناس ويكافح لتحقيق تطلعات شعبية قد لا تتوافق تماماً مع ما يفرضه الرسميون من خطط وبرامج تقليدية.

الكتابة عمل انقلابي:

المثقف يتراوح بين عموم محيطه الإنساني وبين أمته وقيمه ومثله العليا، فهو لا يستطيع أن ينجح في وظيفته إلا إذا ملك حريته واستقلاله بعيداً عن بيروقراطية المؤسسات الثقافية وكان في خطابه ناقداً ومبصراً. والعاقل عندما يتأمل ذلك الرصيد من الكتابات التي شكلت معالم وحدود (دور) المثقف حتماً سوف يتريث ويتفهم طبيعة العصيان والتمرد لبعض الأقلام وهي تحلق خارج فضاء المؤسسات الثقافية والرسمية، ومن أجمل الكتابات التي طالعناها مقال (رائع) للشاعر العربي نزار قباني نشر تحت عنوان (الكتابة عمل انقلابي) عام 1991 في جريدة الحياة اللندنية، ولعله بحاجة للقراءة أكثر من مرة وقد اقتنصنا منه ما يلي: "الكتابة عمل يستهدف تغيير هندسة الكون وهندسة الإنسان وعند ما يغيب الشرط الانقلابي في الكتابة ينتهي مبرر وجودها. لا كتابة بغير تحريض وكل قصيدة يكتبها شاعر هي تحريض لغوي على السمو والتمدن والانعتاق والحرية. الكتابة

هي الجلوس لا على فراش حرير ولا على سجادة تبريزية ولا على كرسي هزاز. إنها الإبحار في فضاء من الأسئلة دون أن يكون معك تذكرة للعودة. الكتابة ليست مقهى نشرب فيه الشاي واليسنون وليست اصطيافاً على شاطئ (نيس) و(كان) و(جزر الكناري) إنها اشتباك يومي بالسلاح الأبيض ضد القبح والفكر الفاشستي. الكتابة ليست فعل امتثال ولا فعل رضوخ ولا فعل تنازل ولكنها فعل انقضاضي على كل بشاعات هذا العالم. من يقول لك إنه كاتب محايد فهذا يعني أنه كاتب ميت. ليس في الكتابة منطقة منزوعة السلاح أو منطقة حرام أو منطقة تتولى الأمم المتحدة فيها الفصل بين المتحاربين فالكاتب الذي يعلق على جبينه نمرة من نمر السيارات الرسمية يتحول إلى شاحنة لنقل النفايات!!

المؤسسات الثقافية الأهلية والوجاهة:

قامت العديد من المؤسسات الثقافية الأهلية بإحداث قفزة نوعية في نمط نشاطها التطوعي حيث تجاوزت الدور التقليدي المتمثل في تقديم الخدمات (طعام- كساء- دواء) إلى تفعيل وتنشيط الحركة الثقافية والفنية سواء أكان ذلك عبر إلقاء المحاضرات والندوات أو غيرها من النشاطات المتنوعة. لكن هذه المؤسسات بدأت تكرر وتستنسخ ما تقوم به الأجهزة الثقافية الرسمية المتمثل في تقديم جوائز للمشاهير من الأدباء والمفكرين، والخطأ في ذلك أن تلك المؤسسات الأهلية يجب أن تتوجه وتبحث عن طاقات بكر وتبرزها، وبذلك تكون مكملة للمشروعات الحكومية عوضاً عن التركيز على (النخب) أي المثقفين والأدباء الجاهزين وهو الطريق الأسهل، بمعنى أن (الجهد الأهلي) لم يساهم في التكوين والصناعة. إضافة

إلى أن هذه اللقاءات غالباً ما تختتم بتوزيع كتب مجانية على النخب من المثقفين في دوائرهم شبه المغلقة فيتحول (الجهد الأهلي) إلى بروتوكول لصالونات أدبية خاصة بطبقة مترفة تمتزج فيها الثقافة بالوجاهة ولا تخلو بالتأكيد من مساحيق الإتيكيت والدعاية والإعلام!

نعم إن غزارة إنتاج بعض هذه المؤسسات الأهلية ورفدها الكبير للساحة الثقافية قد يغفر لها سلوكها الرسمي، لكننا نلفت انتباه (القائمين) على هذه المؤسسات بطيئة الحركة إلى أن التمرد والتغريد خارج هذه الدوائر يفصح عن تألق كامن لهذه الطاقات الفكرية والقلمية التي تشبه إلى حد كبير صوت العصافير عند الفجر فهي .. تبشر ببزوغ يوم جديد .. بريئة جريئة ناعمة ... لكن يصعب اصطيادها!!

مبدأ من أين لك هذا؟

يعتبر موضوع (المساءلة) من المشاكل التقليدية للأنظمة السياسية الديمقراطية وهي تختصر الكيفية التي يتأكد بها المواطن بأن هؤلاء الذين وضعت فيهم الثقة بغرض تمثيلهم يتخذون قرارات من أجل المصلحة العامة للمجتمع.

قد يعتقد البعض أن (مبدأ من أين لك هذا؟) من القضايا المستحدثة في التجربة الغربية! لكن الحقيقة هي أن الرسول ﷺ أول من وضع هذا القانون وذلك حيث وظف رجلاً على جباية الزكاة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلّي؟ فلما رأى الرسول ﷺ هذه الهدايا قُدمت له من غير حق، صعد المنبر فقال: (ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا أهدي إلّي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي أحدكم بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبعر[1].

في هذه السطور نلتقط المشهد التاريخي ومن ثم نشيِّد جسوراً ما بين (المنصب - المال - الديمقراطية) باعتبار زيادة (وعي الناس) هو أحد الآليات الهامة للحد من (الفساد)، ولن يكون هناك وعي (ممارسات

[1] الرياض النظرة ج2 ص 47. ميزان الحكمة ج4 ص44.

ديمقراطية) إذا كانت الناس تعيش تحت (خط الفقر) أو كما جاء في (العهود المحمدية للشعراني) قول الإمام الشافعي: "لا تشاور من ليس في بيته دقيق! إذ كيف يكون للرجل رأي مصيب وفكره مشغول بمشكلة قوته!؟".

المال والديمقراطية:

هناك علاقة متلازمة بين المال والعملية الديمقراطية في تجارب معظم دول العالم، بمعنى أن الثروة تؤثر على السلطة وأن هناك تأثيراً متبادلاً بين الطرفين، والجميع يعلم أنه نادراً ما تتخلص الانتخابات البرلمانية وحتى المحلية والبلدية من سطوة المال في شراء الأصوات خصوصاً في المناطق الفقيرة المنشغلة بمعاناتها اليومية بعيداً عن المشاركة السياسية! كما أن هناك شخصيات تصل إلى عضوية البرلمان بمنطق القدرة المالية، وذلك بالرغم من وجود كفاءات فكرية وكوادر مثقفة قادرة على العطاء السياسي، ولكنها تظل هناك مجمدة على قارعة الطريق، وهي ظاهرة أشار لها الزعيم الألماني (أدولف هتلر) في كتابه المشهور (كفاحي) الذي نُشر في الثلاثينيات من القرن الماضي حيث يقول: "... إن نظامنا البرلماني بحالته الراهنة لا يهمه قيام مجلس نيابي تحشد فيه الكفاءات بقدر ما يهمه حشد قطيع من الأصفار يسهل توجيهها!".

إذاً هناك خط أحمر يتعلق بمفهوم (الفساد) يتصل مباشرة بتحالف قد ينشأ بين أهل الثروة وأصحاب السلطة؛ لهذا أولى الإسلام عناية هامة للحاكم الصالح ومدى اقترابه من أهل الفكر والمعرفة (البطانة الصالحة)! بالتأكيد هناك فئة من رجال الأعمال تتميز بالصلاح لكن الصور مخيفة لدور هذه الفئة عالمياً وعربياً خصوصاً وأن التجارب المعاصرة قد جعلت الصورة

أكثر وضوحاً من خلال النفقات الباهظة في الحملات الانتخابية بحيث تفرض شخصيات مدعومة مالياً، أو قد يفرض تيار سياسي نفسه اعتماداً على قدراته المالية.

إن الحديث عن الإصلاح السياسي (مقاومة الفساد) يتطلب وجود قاعدة من الوعي عند الناس وهو أحد دوافعنا للكتابة في الموضوع خصوصاً وأن المجتمعات العربية مقدمة على انتخابات (برلمانية وبلدية). وإذا كان حديثنا يدفع باتجاه قوة اجتماعية تمنع الفساد إلا أن هناك دوراً تقوم به الدولة العربية للنهوض بالمستوى المعيشي للمواطنين بمعنى (مكافحة الفقر)، فالعلاقة شرطية بين "الفقر" ومظاهر التخلف من أمية وفساد. إن الارتقاء بمستوى معيشة الفرد يفيد في تجنب مشكلات متعددة إحداها قد تكون التطرف والإرهاب؛ فمعظم مظاهر الرفاه التي تعيشها المجتمعات المتقدمة يعود بالدرجة الأولى إلى اتساع قاعدة الطبقة الوسطى في المجتمع والعكس صحيح. ولعل الفساد في أمريكا اللاتينية خير شاهد، فالمجتمع هناك مقسم إلى فئتين: أغنياء وفقراء لا ثالث لهما.. نعم، هناك دول تعيش الوفرة وتمتلك الموارد لكن ناسها تشد الأحزمة على البطون من الجوع وينطبق عليها قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول!!

تآكل الطبقة الوسطى:

في المجتمعات العربية يصعب طرح تعريف إجرائي للطبقة الاجتماعية، فمفهوم الطبقة بحسب (حنا بطاطو) متداخل مع مفهوم المكانة الاجتماعية للأفراد والعائلات المكونين لهذه الطبقة، ويتداخل فيها المضمون

الاجتماعي للطبقة إلى جانب المضمون الاقتصادي، كما يصعب على الباحث الاجتماعي التمييز بين عناصر كل طبقة؛ لأن الملكية ليست هي الأساس المسيطر على التراتب الاجتماعي. "حنا بطاطو" (فلسطيني الأصل بقي منكباً أكثر من 12 عاماً ليقدم دراسته الرائعة حول (مجتمع وتاريخ العراق الحديث)، يذهب (بطاطو) إلى أن هناك مبادئ للتراتب الاجتماعي تقوم بعملها سوية فإلى جانب هرمية الثروة توجد هرميات أخرى دينية وقبلية وطائفية تستمد قوتها من الأكثرية التي تخضع لعادات وتقاليد إسلامية مع أعراف وعصبيات عشائرية مصبوغة بصبغة دينية.

إلا أنه يمكننا تتبع طبيعة الحراك الاجتماعي منذ الستينيات حيث بدأت في الوطن العربي وعلى الخصوص في منطقة الخليج العربي عملية نزوح من البادية والريف إلى "المدينة" بحثاً عن العمل في ما يشبه اندماجاً مع حياة المدينة والالتحاق بوظائف الدولة المدنية والعسكرية والعمل لدى الشركات والبنوك. ذلك التحول وذلك النزوح أفرز شيئاً من (التحضر الشكلي) الذي عمل على استمزاج خلطة من العلاقات العشائرية مع قيم وتقاليد ريفية بحيث لم تؤثر المدينة التي لم تستكمل عافيتها كحاضرة متماسكة على (الكم) الوافد بل تمت عملية (ترييف) وكذلك (بدونة) للمدينة مما أدى إلى عدم وضوح في طبيعة ودور الطبقة الوسطى.

نعم هناك تزايد في عدد سكان المدن وارتفاع نسبي في الثمانينيات لمستوى المعيشة وتحلل أو لنقل ضعف في الولاءات العشائرية وانتشار للتعليم وتطور ملحوظ في الصحافة والإعلام والمواصلات، إلا أن كل ذلك لم يبشر بظهور (طبقة وسطى حقيقية) لها دور واعد في قيادة الوعي

الاجتماعي. هذه الطبقة (المحامون، المهندسون، الأطباء، أساتذة الجامعات، المعلمون) عندما تنكمش وتتآكل فإن المجتمع يخسر مشاركتهم في الأعمال التوعوية والتطوعية والثقافية؛ كذلك يخسر فعاليتهم في تأسيس هيئات ومنظمات المجتمع المدني نظراً لانشغالهم بلقمة العيش والبحث عن قوت العيال، وقد صدق منصور بن المعتمر السلمي الكوفي أحد تلامذة الإمام الباقر حين قال: الناس ثلاثة أصناف: فقراء، أغنياء، أواسط ... فأكثر الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء وذلك لسخف الفقر وبطر الغنى وإن أكثر الخير مع أكثر الأوساط.

نموذج مستهجن:

في ظل التدهور الذي لحق بالطبقة الوسطى في مجتمعاتنا العربية يمكننا رصد جانبين:

الأول: صعود شريحة اجتماعية (غامضة) تكره أشعة الشمس؛ لذا فهي تنشط في الليل كالخفافيش وقد يكون ظهورها جاء نتيجة طبيعية لتداعيات العولمة.

الثاني:- أقسى قليلاً - وهو أن العضو في هذه الشريحة الجديدة يتمتع بمجموعة من الصفات، فهو ضئيل الثقافة قلق المزاج لأن عقله وقلبه مكبل بشاشات الأسهم ضارباً قضايا ومصالح المجتمع عرض الحائط، حديث النعمة سريع التربح حقق نجاحه من خلال قفزة مالية في الظلام، وقد تنبأ المفكر الفرنسي (ريجيس دوبريه) قبل محاولتنا التشخيصية هذه بظهور شرائح متنوعة وغريبة تهمش الدور الريادي للمثقفين حين قال: "هناك فاعلون اجتماعيون جدد هم الأقدر على صنع العالم وإعطائه معنى، إنهم

رجال الأعمال ومصممو الأزياء ونجوم الغناء وأبطال الشاشة ولاعبو كرة القدم ومهندسو الحواسب وأباطرة المؤسسات الإعلامية". نعم هذا الظهور لهذه الشريحة المستهجنة يبعث في النفوس الشوق والحنين إلى فئة عصامية من الأثرياء جديرة بالاحترام أسسوا في مجتمعاتهم المصانع والشركات والأوقاف الخيرية، أرواحهم مسكونة بحب الناس والفزعة للمحتاج، حياتهم مفعمة بالصبر والعطاء بعيدة عن الوجاهة الاجتماعية والمناصب السياسية، قال فيهم الرسول ﷺ: "نعم المال الصالح للرجل الصالح".

لكن يبقى سؤال جوهري: من الذي أسس لظهور تلك النماذج (السماسرة الجدد) سماسرة الأسهم والتسكع في المكاتب العقارية لاقتناص الفقراء والشباب الطامح في شراء أرض وبناء حياة ومستقبل جديد؟

هل هو غياب نموذج تنموي واضح المعالم؟ أم سياسة الانفتاح الرأسمالي المصاحب للعولمة؟ بحيث قذف لنا برجال بلا مناقب ترتقي فجأة السلم الاقتصادي بفضل المضاربات والأسهم؟ أم هي الشهوة العارمة في تقلد المناصب (hungry for power)؟ أو كما جاء في الأمثلة الشعبية يا حبذا الإمارة ولو على حمارة؟؟ بحيث يتبع المنصب ثراء مفاجئ خصوصاً وأن (مبدأ من أين لك هذا؟) لم يتجذر في ممارساتنا السياسية والاجتماعية. إنه مجرد سؤال بريء لعله يقدح حالة جديدة من التفكير.

محطة للاستجمام والراحة

قال رجل بدين لزوجته: وصف لي الطبيب حمية وقال (كل) فقط طبقاً من الشوربة كل يوم. لكنني نسيت هل آكل طبق الشوربة قبل الطعام أم بعده؟؟

يعتبر التوتر والضغوط النفسية أحد ملامح ومعطيات العصر وإن كان الناس يختلفون في تعاملهم مع الضغوط،فمنهم من يلجأ إلى الأكل كما في الدعابة السابقة ومنهم من يلجأ إلى النوم وفي الغرب يلجأ الناس إلى المشروبات الكحولية وفي الشرق كاليابان يلجأ الناس إلى المنشطات والعقاقير!!

والضغوط جزء لا يتجزأ من حياة البشر منذ خلق الله تعالى الإنسان على وجه الأرض وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ والكَبَد المشقة والعناء جسمياً كان أو نفسياً، لكن ظروف العصر عملت على زيادة التعب؛ ولأسباب موضوعية فنحن في عصر السرعة فقد يفطر الإنسان في القاهرة ويتغدى في دمشق ويتعشى في بيروت!

هذا إلى جانب التحول الكبير في استقبال المعلومات والمعارف، فالطفل مثلاً يتعرض في العصر الراهن وخلال شهر واحد إلى كم من

المعلومات يعادل ما يتعرض له شيخ في السبعين من عمره قبل ثلاثمئة عـام، كما أننا لن نتحدث عن "السياسـة" باعتبارهـا أحـد (مصـادر الضـغوط) خصوصاً في وطننا العربي؛ لذا فمن حقنا أن نسـتفيد مـن "حيـل الأطبـاء" والتي من بينها أنهم أي الأطباء يعمدون إلى تغليف الأدوية ذات المـذاق المـرّ بطبقة من النشاء المُحلى ليسهل بلعها ولكن بمقدار كما يقول الشاعر:

أفد طبعك المكدود بالهم راحـة — بـراح وعللـه بشــيء مـن المـزحِ
ولكــن إذا أعطيتـه ذاك فلـيكن — بمقدار ما تعطي الطعام من الملـحِ

والكلام في السياسة يجب أن يدخل ضمن دائرة التوازن بـين (العقـل والعلم) فقد روي أن ابن المقفع والخليل بن أحمد الفراهيدي كانا يلتقيان بين حين وآخر ويتباحثان في شؤون العلم والشـعر والأدب، فـاتفق أن التقيـا في أحد الأيام فأخذا يتحـاوران لمـدة ثـلاث ليـال! (وكـأن الحـوار يـزيح تـوتر المثقفـين!) وبعـدها قيـل لابـن المقفـع: كيـف وجـدت الخليـل بـن أحمـد الفراهيدي؟ فقال: "وجدته رجلاً عقله زائد على علمه"، ولما سـئل الخليـل بن أحمد عن عبد الله بن المقفع قال: "وجدته رجلاً علمه فوق عقلـه"، وقـد صدق الاثنان: لأن الخليل مات حتف أنفه أما ابن المقفع فمات مقتولاً بتهمـة الزندقة!!

داخل كل إنسان طفل لا يموت:

في قاعة التدريب غالباً ما نقدم مجموعة من الممارسات وهي خيـارات واقعية للتخفيف من التوتر والضغوط منها: (اجتمع بأشـخاص سـعداء أو كما عبر الإمام علي: "يسعد المرء بمصاحبة السعيد" - استمع للقرآن الكريم

- ارو طرفة أو نكتة - اكتب رأيك في مقال قرأته - استحم أو اسبح إذا شعرت بالملل - خطط لرحلة - قم بعمل تطوعي لخدمة الآخرين - سجل أشياء إيجابية تود عملها اليوم - اشتر شيئاً تحبه عطر مثلاً - اشعر بوجود الله ورعايته في حياتك - قم بإعداد طبخة تحبها) لكن "انتبه!!" عند دخولك المطبخ. فهناك طرفة تقول: إن زوجة قالت لزوجها: أنا ذاهبة لأزور الجارة لمدة خمس دقائق رجاءً لا تنسَ أن تحرك الشوربة كل ربع ساعة! نعم فوراء كل رجل عظيم امرأة تقول له: إنه ليس عظيماً إلى هذا الحد!!

جيل الوسط في الوطن العربي:

الماضي والقديم مقدس لعله عند أغلب الناس وخصوصاً عند النساء، وهذا ليس محلياً بل عالمياً، فعندما سئلت الكاتبة الإنجليزية (أجاثا كريستي) لماذا تزوجت واحداً من رجال الآثار؟ قالت: لأني كلما كبرت ازددت قيمة عنده! لذا ذكّر زوجتك دائماً بأنك كبير في السن!!

والناس بطبعها تميل إلى المقارنة بين الأجيال فينشأ التحيز في الانتصار كلٌّ لجيله، فإذا افتخر جيل الآباء "بالماضي" فإن الجيل الحالي وظف التكنولوجيا لصالحه، فنلاحظ مثلاً أن رسائل الجوال التي يتم إرسالها شهرياً في السعودية يقدر عددها بأكثر من (150) مليون رسالة، فيما يتجاوز عدد المشتركين بخدمة الهاتف الجوال (7) ملايين مشترك، وتمثل نسبة (80) في المئة من الرسائل (دعابات وطرائف) أي أن الرسائل تكيف شبابي معاصر للتخفيف من الضغوط، أو لعبة تجارية استسلم لها الجميع.

لا تتوقف الأجيال عن التصارع حول قيمها وعاداتها وطموحاتها، فبينما يصر جيل الآباء مثلاً على تناول الوجبات المنزلية المسكونة بالحميمية

ولَمِّ الشمل، يعشق جيل الأبناء الوجبات السريعة في (ماكدونالدز) الذي صمم ليقول للناس كل لوحدك وهرول، فإيقاع الحياة سريع، ويذكرنا عصر السرعة بذلك الرجل الذي قال لبعض البخلاء: لم لا تدعونني إلى طعامكم؟ قال البخيل: لأنك جيد المضغ سريع البلع إذا أكلت لقمة هيأت أخرى، قال الرجل: يا هذا أتريد إذا أكلت عندك أن أصلي ركعتين بعد كل لقمة؟!

وبما أننا بدأنا بدعابة حول الأكل نختتم بنصيحة إلى متوسطي العمر في أن الذهاب إلى المطعم بين الحين والآخر هو نوع من كسر الروتين والجمود، ولكن شرط أن تكون نظارتك في جيبك حتى تتجنب ما حصل للعالم المبدع (أينشتاين) فقد كان أينشتاين لا يستغني عن نظارته وصادف أن ذهب ذات مرة إلى أحد المطاعم واكتشف هناك أنه قد نسي نظارته فلما أتاه (الجرسون) بقائمة الطعام ليقرأها ويختار منها ما يريد طلب منه أينشتاين أن يقرأها له فاعتذر الجرسون قائلاً: إنني آسف يا سيدي فأنا أميّ جاهلٌ مثلك!!

مقاربة في جماليات الاسم

يختزن الاسم أهمية كبيرة في ذاكرة الأشخاص أو الجهات على اعتبار التداخل في الشكل والمضمون بحيث يؤثر في الآخرين ويتأثر بقيمة الاعتبار المعطى له... وفي كثير من الحالات يشكل (الاسم) جزءاً أساسياً من أجزاء (الدور) بل وعنصراً فاعلاً فيه... فقيمة "الأسماء" لا تتأتى من (الوصف) وإنما من اختراق وعي الآخرين وانعكاس طبيعة تعاملهم معه، فثمة (عنوان) لكل مؤسسة متميزة وثمة (عنوان) لكل نص إبداعي يتجاوز ذاته كموصوف ليشكل عصراً مهماً في إبراز الملامح الهامة لطبيعة الأشياء وقد قيل: "لكل امرئ من اسمه نصيب".

قدح الخيال أم تسمية الدور؟

من أبرز وسائل تصوير "الدور" تسميته، فالتسمية وحدها قدح للخيال وانسلاخ من النمطية مع تريثنا في إدراك الفارق بين الواقع العلمي والأدبي.

في الخيال الإبداعي يتشكل الاسم من خلال العمل السردي فلا ضرورة هناك بين تطابق الواقع والعنوان فقد يكفي أن يكون العنوان مستوحى منه، لكن اللذة لا تزال متجذرة في الأعماق لتحريك التخيل اللغوي بما يثمر التسمية ولكي تتناسب مع الشخصيات والمهام الكبيرة

حينئذ تكون التسمية منسجمة مع خصوبة الخيال ومتلاقحة مع حالة الانفتاح على روح العصر.

القيم الخشنة:

الأسماء التي يتسمى بها الأفراد بالضرورة تتشرب وتعكس طبيعة القيم السائدة في أي مجتمع كان، فالأسماء في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام كانت تدل على عقلية الحرب والخشونة، ويروي التاريخ أنّ أحد الأعراب سُئِل في الجاهلية: لماذا تسمون أبناءكم بمكروه الأسماء وعبيدكم بالمحبوب منها؟ فأجاب قائلاً: "إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا".

لذا كانت هناك أسماء (جبل، ظالم، غالب، صخر، حجر، مقاتل)، فتلك الطبيعة القائمة على الاعتراك تفرز علاقة مستمزجة أسماء الحيوانات الضارية أو المؤذية حتى يهابك العدو (سبع، حنش، سرحان، فهد، ذئب، ليث) أو كما قال الشاعر:

ومن لم يكن ذئباً على الأرض أجرداً   كثير الأذى بالت عليه الثعالب

لكن الراصد بالعين الباصرة يلاحظ أن العرب رغم علاقتهم الحميمية بـ (الخيل) إلا أنهم لا يتسمون بأسمائها ونحن جميعاً نعلم أن (الخيل) جميل الشكل فاتن المظهر رائع الصفات وينفع الناس؟! سؤال هادئ يقود إلى نقاش دافئ.

حسن البداية:

كلمة (الاسم) مشتقة من السمو - كما في المعجم - والسمو: ارتفاع وعلو وتنويه وتنزيه. قال الشاعر الحكيم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاحُ

فاللغة - مثل الكائن الحي - تنمو وتتطور وتترقى وتتهذب كما أنها قد تشيخ وتموت، وكذلك الأسماء لا ينقطع حبل تواصلها المتين، حيث تعلمنا من الرسول ﷺ القدوة، فن الجمال وبراعة الاختيار فقد استبدل سيد المرسلين اسم (يثرب) الذي يعني الثرب أي (الفساد) باسم يتدفق روعة وتألق (طيبة) (المدينة المنورة). إنه درس لكل مؤمن (مؤمنة) عاقل راشد إذ جميعنا يدعو راجياً "حسن الختام" لكن "حسن البداية" بيد الأب والأم فلنبدأ باختيار أحسن الأسماء وليس أعقدها من أجل التميز الفارغ والشهرة على حساب الأبناء.

شخصنة المؤسسات:

تعتمد الحياة البدائية (عصر ما قبل الدولة) على اختصار دور المواطن والمؤسسات من خلال وصف أسماء الأشخاص (أمراء وحكاماً) على الهيئات والمؤسسات والأماكن، وهذا بخلاف ما تعتمده الحكايات الشعبية التي تقدم (اللامحدود) في وصف المكان، فلا تدقق في أجزائه ولا تهمش عناصره وتحجم شخصياته مكتفياً بالتلميح لتثير الإبداع.

نحن هنا لفك الاشتباك في أن تكون الحكاية الشعبية أكثر تقدماً من واقعنا مع الاعتذار الشديد سلفاً للمقاربة غير العادلة بين الثقافات (ثقافة النخبة -ثقافة الديوانيات - ثقافة الحكايات الشعبية) لكننا نتجاوز بهرجة الظاهر إلى رزانة المضمون ... فالحكاية الشعبية تحلق إلى أبعد مما تراه العين أو تسمعه الأذن والشخصيات تدخل المكان ولكنها لا تلغي ذاتها، أي لا تقيم علاقات نوعية مع العنوان بما يحمله من زخم فيضمحل الإدراك.

وهنا يقفز سؤال ذهبي الحروف: هل نستشف من ذلك الحوار أن نهمل فخامة الدور؟

هناك أسماء لامعة لكنها ضئيلة الفعل في الحياة الاجتماعية لأنها بعيدة عن (خط الدعوة) الإلهي، فكأننا نهمس للداخل وبحشمة: اللهم اجعلنا من الذين يمكثون في الأرض لينفعوا الناس، وجنبنا من أن نكون من الزبد الذي يطفو ويذهب جفاء.نعم هناك دروس من التاريخ، فقد نقل أن تأبط شراً[1] لقي رجلاً من ثقيف يقال له أبو وهب، وكان جباناً أهوج، وعليه حلة جيدة، فقال أبو وهب لتأبط شراً: بم تغلب الرجال يا ثابت، وأنت كما أرى دميم ضئيل؟ قال: باسمي، إنما أقول ساعة ألقى الرجل: أنا تأبط شراً، فينخلع قلبه، حتى أنال منه ما أردت.

اختراق الوعي:

ستبقى الصورة سرمدية ومزروعة على الوردة التي لا تذبل، وستبقى متسربلة بالموسيقى إلى جانب المضمون مثلما كانت البداية، وستبقى أداة للعقل في إدراك العالم ووسيلة ليس للتواصل فحسب وإنما لتحقيق المعرفة والإحساس بالجمال، فالصورة تترك في الذهن مشهداً لا ينسى وتحفز الإنسان ليعيش في عالم أرحب لا سيما إذا ما تم الاعتناء بالمكان والمساحة والشكل واللون والحركة والعناصر المكونة (الناس) والأوضاع والتحولات في الزمان والمكان، فالاستغراق في الجامد يبعث على الملل ومعلوم أن كثيراً من القفزات الحضارية تقوم على اختراق المسكوت عنه ومخالفة المشهور،فالعبقرية تكمن في تحريك لأشياء لا سكونها أو كما قال الإمام الشافعي:

[1] تأبط شراً: هو ثابت بن جابر كان أسمع العرب وأبصرهم وأسرعهم عدواً.

إني رأيـــت وقـــوف المـــاء يفســـده

إن ســال طــاب وإن لم يجــر لم يطــب

والأسد لولا فراق الغاب مـا افترســت

والسهم لولا فراق القـوس لم يصـب

فالمرء دائماً يخاف من المجهول ومما هو أكبر وأقـوى وأعظـم ويشـفق على ما هو أصغر منـه وأضـعف وهـو بحاجـة إلـيهما معـاً ليشـبع في نفسـه الشعورين ويحقق ما أسماه (أرسطو) بالتطهير.

إعلان المقاطعة! أسبوع بلا تليفزيون ...

كثرت في الآونة الأخيرة الانتقادات الموجهة إلى الإعلام العربي عموماً والتليفزيون والفضائيات خصوصاً، وأصبحنا مع كل مطلع شمس نقرأ قصيدة في نقد أو مدح هذا البرنامج أو ذاك! والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما الذي فعله المواطن العربي تجاه ما يفرض أو يعرض عليه؟

فكرة مقاطعة التليفزيون:

جاءت فكرة (الأسبوع القومي للانصراف عن التليفزيون) من إحدى الجماعات الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية التي تطلق على نفسها اسم (أمريكا المتحررة من التليفزيون) وتتخذ من واشنطن مقراً لها، حيث ترى هذه الجماعة أن عملية الإقلال من متابعة التليفزيون سوف تؤدي إلى الحد من الاستهلاك وتدفع إلى المزيد من القراءة! ولنا وقفة بعد قليل مع مسألة القراءة وظاهرة (هاري بوتر).

إذاً "فكرة المقاطعة" جاءت كنتيجة لمشاعر كامنة عند الجميع والمتمثلة في وضع خطوات "عملية" لإبعاد الأطفال عن تلك القنوات الإلكترونية (كالتليفزيون - الكمبيوتر - بلاي ستيشن ...إلخ) وتوجيههم بشكل جاد لممارسة الأنشطة الطفولية التي أصبحت نادرة مثل (الجلسات العائلية الحميمة) باعتبارها من القيم الأسرية الهامة.

الشيء الجميل في بعض المجتمعات أنها لا تستمع فقط، بل تنتقل إلى تطبيق الأفكار العملية حتى تخرج من دائرة التنظير، وبالفعل أعربت عشرات من الهيئات والمنظمات عن تبنيها لفكرة الجماعة وتم طرح شعار (أطفئ التليفزيون واستمتع بالحياة) (turn it off and live). كما تجاوبت (الجمعية الطبية الأمريكية) وأعلنت موافقتها وإقرارها لفكرة الأسبوع القومي للانصراف عن مشاهدة التليفزيون، كما طبقت الفكرة ما يقارب من (40) ألف مدرسة!! حيث شجعت طلابها على تجنب مشاهدة التليفزيون خلال الأسبوع القومي وقدمت بعض المدارس حوافز عينية لطلابها لتشجيعهم على فعل "المقاطعة".

قديماً قالت العرب (إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب) ويمكننا القول هنا: إن الإنسان يجب أن يكون ذئبياً في الدفاع عن حقوقه وهويته وأن يمتلك أدوات ووسائل الحماية الذاتية خصوصاً إذا كنا نعيش في ظل ثقافة الخروف في عصر العولمة! نعم بعض المدارس في وطننا العربي قامت بتطبيق الفكرة، لكن "الدعوة" لا تزال مفتوحة لجميع (الأسر) ولجميع (المدارس) فقد جاء في الأثر: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" مع مراعاة أن التطبيق يجب أن يكون(بشرطه وشروطه) بمعنى ماذا سوف يفعل الأطفال وما هي الأنشطة والبرامج البديلة خلال ذلك الأسبوع؟ وما دور الأسرة والمدرسة في ذلك؟

"هاري بوتر" قراءة بين السطور:

تتباين نتائج الدراسات حول عدد ساعات مشاهدة التليفزيون عند الأطفال، لكن المعدل العام يصل إلى (6) ساعات يومياً مما يعني أن هناك

ساعات هدر موازية لما يقضيه التلميذ في المدرسة!هذا بالتأكيد يؤثر على "عادة القراءة" وتنمية المهارات الشخصية بشكل عام.

ونرغب هنا أن نقف قليلاً مع(ظاهرة) جديرة بالتأمل وأن تسترعي انتباه المعلمين والتربويين في الوطن العربي باعتبار أننا (أمة اقرأ) مقارنة بالمجتمعات الأخرى التي صنعت التليفزيون، إنها ظاهرة قصة "هاري بوتر" التي استطاعت أن تقتلع الأطفال من أمام التليفزيون وبرامج الكمبيوتر المسلية!

تبدأ القصة باختصار مع المؤلفة (كي جي رو ليننج) وهي سيدة مغمورة كانت تعيش على المعونة الاجتماعية وكانت تربي ابنتها التي عاشت بدون عائل حيث استغلت هذه السيدة أوقات نوم صغيرتها لتكتب الجزء الأول من قصة (هاري بوتر) الذي استغرق خمس سنوات، وفي عام 1997م قامت بنشر أول جزء منها، والسلسلة تتكون من عدة أجزاء. وبين عشية وضحاها أصبح بطل القصة أحب الشخصيات للأطفال في العالم. وحقق فيلم (هاري بوتر والحجر السحري) (100) مليون دولار أرباحاً في الأسبوع الأول من عرضه، والمدهش أنه في اليوم الأول لنزول الجزء الخامس اشترى الأمريكيون (خمسة ملايين) نسخة بقيمة تعادل (117) مليون دولار!! وهكذا أصبحت للسيدة الفقيرة المغمورة ثروة. بينما الكاتب أو المفكر في وطننا العربي عندما يطبع ما يقارب ألفي نسخة يظل الكتاب أو الرواية على رفوف المكتبات لمدةعشر سنوات وقد لا يغطي المثقف المسكين تكلفة الطباعة!

المهم في الأمر، وبغض النظر عن مضمون قصص (هاري بوتر) أن

الدراسات تشير إلى أن (60%) من الأطفال في الولايات المتحدة الذين تتراوح أعمارهم بين (6-17)سنة عام 2003 يملكون الأجزاء الأربعة الأولى من القصة، وهذا في تقديرنا مؤشر على حب الأطفال للقراءة. كما يجعلنا نتساءل أيضاً: لماذا تعلن هناك (المقاطعة) على التليفزيون وهو في البلاد الذي صنعته؟؟ على الرغم من أنها تعيش مثل تلك المؤشرات الصحية على حب المطالعة والقراءة. ولماذا تستجيب تلك المجتمعات للأفكار العملية ونظل نحن نناقش الأفكار فقط دون طرح البدائل العملية أو تطبيقها؟ وهكذا يحق للذاكرة أن تستدعي قول أحد الحكماء العرب قديماً: "إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل".

إن كثيراً من "القيم" (حب القراءة - احترام الوقت) تعد من العمق بحيث يصعب تطويرها من الخارج فقط؛ لذلك فإن أنجح وسيلة لتنمية القيم هي التطوير الذاتي، أما الوسائل الخارجية فتساهم في إثراء المعرفة؛ وعليه ينبغي التنبه إلى أن التطوير الذاتي يتطلب الصبر والمتابعة فهو أشبه ما يكون بالزراعة فإن من يترقب موسماً ويبذر في الوقت المناسب ويسقي زرعه هو الذي سيحصد. إنها سنة لا تتبدل.

نادي المقروحين
لماذا يكتب الإنسان؟ ولمن يكتب؟

عندما نجلس أمام الأوراق نستلهم من نعومة البياض الحافز على الكتابة فيحرك ذلك الحافز حواراً أزلياً لماذا نكتب؟ وما جدوى ذلك التعب؟

جميعنا يمارس فعل الكتابة رغم تفاوتها في وعي الأفراد، فقد تكون الكتابة تنفيساً أو ترويحاً أو ربما بدون هدف فتظل الأوراق التي تحمل بصمات الحياة والتجارب مبعثرة بين الكتب أو تحت الوسادة أو تكون حبيسة الأدراج خوفاً من مقص الرقيب! لكن فعل الكتابة يستمر ونحن نمر بدهاليز العمر المسكون بسنوات لعلها أكثر حكمة وأقل تمرداً.

القلم الأخرس:

دوافع الكتابة تتفاوت، فهناك من يعشق حبر القلم لأنه ضد الصمت ولكنه ليس ثرثرة، يقول جوزيف كونراد: "ثمة ظلام أكثر سواداً من ظلام الليل هو بلا شك ظلام الصمت" فإذا كانت ولادتنا في الوطن العربي محكومة بأشكال من السلطة: بدءاً من رياض الأطفال والمجتمع ثم النظام السياسي فإن الكتابة تمزق الصمت وتفضح الظلم وتخلق عالماً أجمل وأكثر احتمالاً لقسوة الواقع.

لذا يمكننا اعتبار صمت أصحاب الرأي والكلمة مخيفاً، وقد اعترض (صلاح الدين حافظ) على ظاهرة صمت المثقفين في اللقاء السنوي الذي يعقد مع رئيس الدولة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب وكيف تدثر معظمهم (لا يستثني نفسه) "بدفء الجلوس الكسول فوق الكراسي الوثيرة". ويضيف إن تكاسل المثقفين وتقاعسهم عن طريق الأسئلة الصعبة في المسائل الصعبة يؤدي إلى أن يحتل الساحة أنصاف المثقفين، يطرحون أسئلة صحفية سريعة أو يتناولون قضايا جزئية أو مشكلة عاجلة أو مطالب شخصية دون الغوص بالحوار في عمق الأشياء! ثم يقسم المثقفين (الكتّاب) إلى فريقين فريق عزل نفسه وانسحب بسبب الاكتئاب أو الإحباط وفريق انخرط بالسباحة مع التيار!

تبدأ الكتابة حباً ولا تنتهي بالزواج:

الناس تفتقد للحنان، والكلمة وحدها هي التي تمنح الحنان خصوصاً إذا تورط الإنسان بهاجس هذا الإدمان فيتصاعد الشعور لديه بالنشوة وبالبطولة نظراً لأن الكلمة جسر يعبر عن هموم وتطلعات الناس، وقد يجد المقهورون صدى آهاتهم في هذه الكلمات، وبهذا الفعل تذوب الحواجز بين الهم الذاتي وهموم الآخرين؛ ليأتي الاكتشاف بأن الحزن والفرح زغاريد صغيرة في سيمفونية العالم بأسره، وقد يكون نوعاً من الألم والتأوه حيث روى السيد المرتضى في كتابه "الأمالي" ما نصه للحسين بن مطير في هذا المعنى ما رواه المبرد:

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح

أبى الناسُ وَيْبَ الناسِ لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح

ويقول الشاعر المعاصر (عبد الكريم زرع):

عليك النصح تدبيراً وسعياً وليس عليك يا موتور نجح
فقرح في فؤادك نصطليه لدينا مثله في القلب قرح

إلا أن الكتابة قد تخلق شيئاً من النرجسية والاعتزاز بالذات عندما تعبر الكلمات عن فخامة المعاني وعبقريتها والقطع بسحرها، وفي هذا يقول (شكسبير): "أستطيع أن أروي أقصوصة تسلب أصغر كلماتها الروح وتجمد الدم الغض وتحرك العينين كالنجوم في مآقيها وتفك خصلات الشعر المتشابكة المعقدة لتجعل كل شعرة تقف وكأنها الشوكة على ظهر قنفذ شرس". إن نزعة الغرور في الكتابة ليس شيئاً مستحدثاً بل هو منذ القدم ونلمسه في أدب الأقدمين كأشعار المتنبي وأبي العلاء وغيرهم ... يقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

لكن (قاسم حداد) يقول: "إن الكتابة هي أجمل شيء في حياتي على الإطلاق مع الحب، وأحياناً أعتقد أن الكتابة تتميز على الحب في كوني أستطيع أن أحققها وحدي دون الحاجة للآخرين كما في الحب وفي ذلك ضرب مضاعف من الحرية".

التجارة بالكلمة:

قد تكون الكتابة سلطة خاضعة لقانون (ادفع لأكتب) وهو نوع من التجارة بالكلمة، وهنا يجدر بنا التفريق بين نوعين من الكتابة: فقد تكون الكتابة (حرفة) وقد تكون (مهنة)، الكاتب الحرفي هو الذي يتقن عمله

ويطوره باستمرار حتى لو كان مقالاً، أما الكاتب المهني فهو الذي يعتاش من كتاباته، فهو معني أولاً بالإنتاج لا بالنوعية وهو مواظب على الكتابة دائماً بدافع التفريخ! إلا أن هناك فئة واعية لفعل الكتابة، وهذه الفئة قلة نادرة متميزة متألقة بالعطاء استطاعت الجمع بين "حرفية الكتابة وامتهانها "، إنها فئة جديرة بالاحترام. لكن التساؤل هنا يقفز محتجاً: هل من الممكن أن يخون الكاتب وظيفته؟

من وجهة نظر (ريجيس دوبريه) إن المثقف يخون وظيفته في حالين: إما يروج إعلامياً أو لا يروج، فإذا روج إعلامياً أصبح ممثلاً أو مفوهاً أو... وبذلك يخون أخلاقية المهنة القائمة على التحليل المنطقي للأشياء، وإذا لم يروج إعلامياً فإنه يخون وظيفته لأنه يتخلى عن الالتزام وممارسة التأثير ويصبح أسير صفاء عزلته، لكن الكاتب المتألق (غازي القصيبي) لا يجد غضاضة في ربط المثقف بالمبادئ لأن المثقف هو بالضرورة إنسان ويقول: "هناك مثقف مثالي وهناك مثقف أناني وكذلك مثقف صاحب مبادئ وآخر انتهازي...إلخ ". المبدأ ليس له علاقة بالثقافة فقد يكون الإنسان بدون ثقافة ويكون محملاً بمبادئ عالية والعكس صحيح فقد يكون الإنسان ذا ثقافة عالية ويكون بلا مبادئ على الإطلاق.

العضوية في نادي المقروحين:

لم يرقص مجتمع على ألحان (سقوط دور المثقف - هامشية دور المثقف) مثلما رقص البعض طرباً لأمثال هذه المقولات، كما تلقاها أيضاً جمع غفير من المثقفين وكأنها قطعة موسيقية تستحق اللذة والشبق حتى الثمالة! وذلك ليس حباً في صاحبها بل تماشياً مع الآخر (الغربي) المتفوق!

بل وصل الحال بأحد مثقفينا المعاصرين إلى التبشير بنموذج ما بعد حرب الخليج الثانية باعتباره "أنموذجاً" تخلص من ثنائية اليمين واليسار كما أنه تخلص من علاقات التبعية، وهي إشارة إلى أن مضمون الفعل الثقافي لا يتجاوز فعل التسلية وأن الكاتب في هذه المساحة الجغرافية من العالم غير معني بالتغيير.

إن الادعاء بموت الأيديولوجيات هو دعوة مبطنة لأن نكون تحت أيديولوجية واحدة، أيديولوجية اللامنتمي والعبثية واللاهدفية.

الإنسان بطبعه محتاج إلى الهوية، إلى الانتماء، وإلى سور من القيم به يحمي نفسه ومصالحه واستمرار وجوده، الحياة الإنسانية تحتاج إلى معنى أو (مثل أعلى) حتى يحقق أمانة الدور﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ﴾[1]، إن الهرولة وراء مقولة (فوكوياما) نهاية التاريخ هو اختصار يعني القول بنهاية الأديان؛ لأن الغرض من الأديان قد انتهى ومعادلة الصراع انتهت ببلوغ الديمقراطية الليبرالية أوج انتصارها في الحرب الباردة.

إلا أن هناك نقطة جديرة بالانتباه وهي أن ثقافتنا تتكئ على مرجعية دينية وأخلاقية تقدح في مفاصل الحياة سلوكيات تحمل المسؤولية ومفهوم استخلاف الإنسان في الأرض وترتع من معين تجربة الأنبياء؛ والنصوص القرآنية﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2] فهذا نوح عليه السلام يمكث في دعوة

---

[1] سورة الأحزاب، الآية 72.

[2] سورة البقرة، الآية 30.

قومه قرابة الألف عام وكذلك الرسول الأعظم ﷺ قدوتنا يحمل الهم حتى أن ربه عاتبه لكي يهون عليه:

- ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾[1]
- ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[2]
- ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾[3]
- ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾[4]
- ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾[5]
- ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾[6].

إنه الهم الرسالي الذي يسمح للأعضاء في هذا النادي بأن تكون كتاباتهم عملاً يرمي إلى أن تتساوى فيه الوردة مع رغيف الخبز، وتسعى الكتابة إلى إزالة حاجز الرعب بين الناس وبين الكلمة المتألقة ولأن يكون مجتمعنا صاحب رسالة متحرراً من ربقة البطن والفرج مترساً بالالتزام كخط دفاع أول لانجراحات ذاكرتنا الجماعية ولتعرية كل المهرولين وراء توقيعات زائفة تحاول إرضاءنا بوطن أصغر من (قرص الأسبرين)!!

إنه الوجع و(التقرح) الراقي، وقد قيل قديماً (و إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام).

---

[1] سورة الشعراء، الآية 3.
[2] سورة الكهف، الآية 6.
[3] سورة النحل، الآية 127.
[4] سورة الأنعام، الآية 33.
[5] سورة النمل، الآية 70.
[6] سورة فاطر، الآية 8.

هل نظرية الصدمة شرط لنهوض الأمة؟

يغيب في ثقافتنا العربية فعل المكاشفة الراشدة ومواجهة الذات بشكل موضوعي، ويتم التعويض عن ذلك بشيء آخر هو لغة (اللوم والتقريع)، وبملاحظة الخطاب الثقافي العربي في المرحلة الراهنة يمكننا ملامسة ذلك التهكم والتقليل (للذات العربية) أو لنقل شيوع نوع من التحقير للذات العربية مقارنة بأيام المد السياسي القومي الذي عمل على تضخيم الذات العربية على حساب المنجز التنموي أو بمعنى آخر كان هناك تضخيم كبير للمعنويات مع ضمور شديد في الإمكانيات.

أما الخطاب السياسي العربي وبعد الهزائم المتتابعة فقد أخذ في دفع حالة من الإشادة بثقافة (النكبة والكارثة) وذلك بدءاً (بنكبة **1948**م) التي احتلت فيها قوات العدو الصهيوني الأرض الفلسطينية حيث علق المفكر القومي (نديم البيطار) بأن تلك النكبة تمثل نعمة!! لماذا؟ لأن النكبة كما يرى (البيطار) تمثل فتحاً لدورة تاريخية جديدة في الواقع العربي!

وهكذا يستمر الخطاب العربي حتى هذه المرحلة وهو ينشد(النكبة / الصدمة)، بل إن هناك اشتياقاً من قبل بعض المثقفين للمزيد من الكوارث انطلاقاً من قناعة أن النكبة هي شرط للنهضة، ويمكن متابعة ذلك الخطاب حتى في سياق الحرب الأمريكية على العراق، فهناك من تمنى الهزيمة فلعل صدمة الحدث تدفع الجثة الهامدة إلى شيء من الحراك!

اضطراب ما بعد الصدمة:

في عام 1980م أدخلت جمعية الطب النفسي الأمريكية عبارة (PTSD) وهو اختصار للمصطلح(Post Traumatic Stress Disorder) أي اضطراب ما بعد الصدمة، وذلك للدلالة على اضطراب نفسي خاص يتلو حدوث الصدمة، وبعد سبع سنوات عادت جمعية الطب النفسي الأمريكية وأدخلت بعض التعديلات على مفهوم اضطراب ما بعد الصدمة فذكرت أنه يستمر لفترة محدودة لكنه قد يطول ويصبح مزمناً!! كما ذكرت الجمعية أن من بين السمات الرئيسية لاضطراب ما بعد الصدمة (التبلد الانفعالي) (Numbing)، ويظهر التبلد الانفعالي من خلال انخفاض الاهتمام بالأنشطة التي كانت في حياة المريض أي العزلة الاجتماعية، أو الانسحاب الاجتماعي وهو عارض إكلينيكي، ولعل بعض المثقفين العرب قد استفاد من هذه النتائج والدراسات النفسية، نقول (لعل)!؟ ونذكر على سبيل المثال ما أشار إليه (جورج طرابيشي) في كتابه (المثقفون العرب والتراث) حيث عقد مقارنة بين الحملة الفرنسية على مصر، وبين نكبة / صدمة حزيران 1967م، فمن وجهة نظره التي تعتمد التحليل النفسي أن الحملة الفرنسية تؤدي إلى اليقظة والانتباه ومن ثم الأخذ بالحداثة وتداعياتها، ويساند هذا التوجه أيضاً الكاتب القدير (تركي الحمد) في مقالة بصحيفة الشرق الأوسط بتاريخ 2003/03/23م معلقاً على الاحتلال الأمريكي للعراق؛ وإيماناً منه بقانون الصدمة يقول: ففي أحيان كثيرة يكون الوضع في هذا البلد أو ذاك، في هذا المجتمع أو ذاك من السكون والجمود وثبات الحال إلى درجة فقدان الحيوية والحياة بحيث لابد من صدمة كهربائية قوية من خارج المجتمع العربي تعيد له الحياة والفاعلية الذاتية.

أهمية الدراسات الإستراتيجية:

إسرائيل تعرضت هي أيضاً إلى (نكبة/ صدمة)، ولكن المثقف الإسرائيلي لم يدع إلى المزيد من الصدمات والنكبات. لماذا؟ لن نقدم إجابة معلبة؛ لذا دعونا نحفر بوعي ونتأمل كيف تعاملت إسرائيل مع تلك الأزمة. فبعد حرب 73 ونجاح الجيش المصري في عبور خط بارليف وتحقيق هذه القفزة العسكرية والنفسية، أخذ الصهاينة منذ ذلك التاريخ يدرسون تلك الحرب، وكيف تمكن الإنسان العربي من تحقيق النصر؟ وكيف تهيأت الإمكانات والقابليات للحرب؟ وماذا يختبئ وراءها؟ ومن أهم وأبرز تلك العقول الإستراتيجية التي عكفت على دراسة هذا (النصر العربي) رجل كان يعمل وقتها رئيساً للاستخبارات الإسرائيلية وهو: (ياحوشوفات ها ركابي) وهو صاحب كتاب (The Arab Mind) وهو كتاب جدير بالقراءة من قبل المثقفين وكل الساسة العرب، وقد جاء فيه: حرب (73) يجب أن تنذرنا نحن المجتمع الصهيوني بأن أمة العرب رغم الإحباط والهزائم العسكرية والسياسية والاقتصادية، إلا أن هذه الأمة لديها قابليات قد تُعرضنا نحن اليهود إلى مخاطر كبيرة جداً ولذلك لا يجب أن يكون الرد على حرب 73من قبل الصهاينة بحرب مضادة (أي عدم رد الفعل النكبوي؟!). بل ينبغي أن ندرس من الآن الشخصية العربية والعقلية العربية وسيكولوجية هذا الإنسان وأخلاقه ودينه؛ فانكب معهد تابع لجامعة تل أبيب اسمه (معهد جافي) للدراسات الإستراتيجية على مشروع ضخم بعد حرب العبور بهدف دراسة الإنسان العربي. (فها ركابي) يقول: "إذا استمرت إسرائيل في مثل هذه الحرب لن تنتهي إلى شيء" وبعد سبع

سنوات (أي في عام 1980) خرج المعهد بدراسة اتخذها حزب العمل الحاكم في إسرائيل برئاسة (رابين) نموذجاً للتعامل مع العرب (بمعنى تفعيل التوصيات والنتائج وليس كما هو الحال لدينا حيث تموت الدراسات على الرفوف) تلك التوصيات تقول:

أولاً: العربي عجول: يريد أن يقطف الثمار سريعاً، فإن كان في حالة حرب يريد نصراً سريعاً، وإن كان في حالة سلام يريد قطف ثمار السلام سريعاً، وإن كان في تجارة يريد الربح بسرعة، حتى لو كان يكتب كتاباً بين يديه يريد الانتهاء منه بسرعة فهو ميكانيكياً عجول متسرع.

ثانياً: العربي ملول: لا يتمتع بالدأب والصبر والتمحيص والمثابرة - قصير النفس.

ثالثاً: العربي رومانسي: يميل إلى الأشواق والأوهام؛ لذلك فهو مولع بالشعر والشعراء، لذا نلاحظ أن للشعراء مكانة كبيرة لأن الشعر يخاطب العواطف والخيال، والعربي يجد ذاته في الشعر.

رابعاً: العربي لا يقهر عسكرياً: لأن لديه الفخر والأنفة والكبرياء وهذه من ضمن كبريائه ومن هنا لا يجب أن نواجه هذا الكبرياء.

ما نركز عليه في هذه السطور ليس صحة أو عدم صحة نتائج هذه الدراسة وإنما المهم في تقديرنا هو كيف نفسر ونتعامل مع الأحداث؟ بمعنى هل ندعو إلى المزيد من النكبات والصدمات (PTSD)؟؟ وفي الوقت نفسه نطرح السؤال الختامي التالي: هل الصدمة بحد ذاتها هي التي تؤدي إلى ظهور الاضطراب؟ أم أن الاستعداد المرضي في الشخصية هو الذي يدفع إلى السقوط في الاضطراب؟؟

نعم للتربية الجنسية في المدارس ولكن!

عندما قرأ المعلم الآية القرآنية الكريمة: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾[1] لم يتوقع أن يباغته أحد التلاميذ بسؤال بريء مفاجئ: ما هو الشيء الذي يخرج من بين الصلب والترائب؟ تلعثم المعلم الذي لم يتم إعداده أصلاً لكي يجيب على مثل هذه الأسئلة الجنسية وتعثرت كلماته؛ فاجتهد كما هي العادة في مدارسنا قائلاً: إنه الماء الذي يضعه أبوك في أمك؟ فضج الفصل بالضحك، وغضب المعلم لأن الجواب لم يكن من باب المزاح!! ذهب الابن بعدها إلى المنزل وأخبر والديه بالقصة فثارت الزوبعة في المنزل وشمر الأب عن ساعديه خصوصاً بعد أن وضعت الأم توابل التهييج والتحريض، فذهب الزوج إلى المدرسة منفوخ الأوداج لكي يبدأ معركة لن تنتهي بل سوف تستمر إلى ما لا نهاية؛ والسبب بسيط فالابن لن ولم يتلق الجواب الشافي؟!

إذا لم يكن هناك منهج للتربية الجنسية ولم يكن هناك معلم كفء تم إعداده لممارسة هذه المهمة في كليات المعلمين والجامعات، وكانت الأسرة العربية منهكة في البحث عن قوت العيال خصوصاً وأن نسبة الأمية في

[1] سورة الطارق، الآية 7.

وطننا العربي تصل إلى (60%) والخيارات شحيحة أمام الطفل والشاب العربي، إنها خيار الشارع والأقران والفضائيات والإعلام غير المسؤول! هذا المشهد يحرضنا على التمعن في قول الإمام علي: "لا تقصروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم".

تنجيس الجنس وتأثيمه:

التثقيف الجنسي عملية مستمرة وموجودة معنا شئنا أم أبينا، حيث تتم عملية التكوين المعرفي ابتداءً من وعينا بأنفسنا وبالناس من حولنا، ونحن نتعلم جنسياً سواء كانت عملية التعليم الجنسي هذه عملية واعية ومقصودة أم كانت عملية مشوشة تأتينا عفوياً من خلال ما يتناقله الناس أو بتأثير القيم والعادات أو من خلال أجهزة الإعلام المختلفة.

القرآن الكريم اشتمل على نصوص كثيرة تتصل بالثقافة الجنسية، وهذه الثقافة ضرورية للصغار والكبار والنساء والرجال، ومن ثمرات هذه الثقافة أن المسلم يعلم ما يحل وما يحرم خصوصاً وأن الأمر يتعلق بالحاجة الجنسية وهي من أقوى الحاجات! وهناك أدلة شرعية تبين أنه يجوز للمربي وللوالدين أن يصارحا ابنهما في القضايا التي تتعلق بالجنس، بل أحياناً تكون المصارحة واجبة إذا ترتب عليها حكم شرعي.

وقد تحدثت الآيات القرآنية بوضوح عمّن يحفظ الإنسان فرجه وعمّن لا يحفظه، وعن الرفث (الجماع) ليلة الصيام وعن المحيض واعتزال النساء فيه وعن طلاق المرأة قبل مسها وعن أحكام البلوغ لكل من الذكر والأنثى والتفريق بين الذكر والأنثى في المضاجع وآداب الاستئذان، وعن النطفة وتكوينها في رحم المرأة، وعن خلق الإنسان من أخلاط النطفتين

الرجل والمرأة، وعن حمل الولد في بطن أمه ومدة إرضاعه، وعن الزنى وكونه فاحشة وساء سبيلاً، وعمّن يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وعن المادة التي تخرج من بين الصلب والترائب، يقول سبحانه وتعالى:

- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1]
- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[2]
- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[3]
- ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[4]
- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[5]
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[6]
- ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[7].

---

[1] سورة الإنسان، الآية 2.

[2] سورة الإسراء، الآية 32.

[3] سورة المؤمنون، الآية 5 - 6.

[4] سورة البقرة، الآية 223.

[5] سورة الأعراف، الأية 80 - 81.

[6] سورة البقرة، الآية 222.

[7] سورة النور، الآية 59.

تجديد التفكير الديني:

ينقسم الناس فيما يخص القناعة بالتربية الجنسية إلى فريقين: الأول (قليل العدد) ينادي بالحرية الشخصية في مسائل الجنس متأثراً في هذه الناحية بما يقرأ أو يسمع به عن الغرب الأوروبي وقد يستشهد بعض هؤلاء بأقوال العالم النفسي (فرويد) ومدرسة التحليل النفسي ونحن على يقين بأن بعضهم لم يفهم نظرية فرويد فهماً يسمح له بالحديث عنها! وهؤلاء يقترحون برامج تعليم جنسي تتسم بالجرأة والمحاكاة لما تقوم به التجربة الأجنبية في مسألة التثقيف الجنسي.

الفريق الآخر (الأكثرية الساحقة) يقف على نقيض من هذا الاتجاه ويحاول إبراز مضار فكرة التعليم والتربية الجنسية، من خلال اقتناص بعض سلبيات المدارس ويشن أبشع الحملات الإعلامية ويتذرع بأن هذه البرامج تسلب البيت الإشراف على التربية الجنسية ويخلط "عمداً أو جهلاً" بين التثقيف الجنسي وبين الإباحية ويقول هذا الفريق بأن ذلك يخدش الحياء عند الفتيان والفتيات مما يؤهلهم لارتكاب بعض الحماقات.

بين قول الفريق الأول وقول الفريق الثاني تظل المسألة معلقة بلا قرار أو كما قال أبو الحسن الماوردي: "إذا لم تعرف إلى أين أنت ذاهب فقد تنتهي إلى مكان آخر!!".

فالكلام العام والعاطفي والرافض لفكرة "التربية الجنسية " لن يؤسس ولن يهيئ مناخاً للحوار الجاد والعلمي لقضية هامة تتعلق بمستقبل أجيالنا في ضوء المعطيات والتغيرات الجادة في عصر العولمة، وقد نلتمس العذر لبعض الأقلام التي يغلب عليها رد الفعل إلا أننا بصدد تسجيل عدة ملاحظات حول فكرة التثقيف والتربية الجنسية.

وأول هذه القضايا: هي طريقة تفكيرنا في النظر إلى بعض المشكلات (المناهج-التربية الجنسية) فلا يزال البعض يعيش (برانوية) مزمنة تجاه الغرب وأن الأخير لديه مشروعات تحاك في الخفاء يستهدف فيها المجتمع الإسلامي! ونحن لا نقف محايدين في مسألة إثبات هويتنا، لكننا نتحفظ على فكرة العقلية التآمرية، بل وندعو إلى فكرة "التأمل الذاتي"، فالأجنبي لا يتمكن من اختراق أي مجتمع إلا من خلال نقاط الضعف في ثقافته ومشروعاته.

وبعيداً عن محاكم الاعتراف التي تجبرنا على القول بأننا لا نمتلك مشروعاً متكاملاً ومقنناً يتعلق بالتربية الجنسية، نقول نحن بحاجة إلى سد منطقة الفراغ في قضية التربية الجنسية، وإعادة ترتيب الأوراق فهناك مؤشرات وقرائن تدلل على هذا العجز، ولعل الأسرة العربية تشعر بذلك وعلى الأخص المعلم في المدرسة العربية الذي يتعرض للإحراج وبشكل يومي.

والقضية الثانية: تتعلق بالموروث الثقافي الجنسي في التجربة العربية والإسلامية وعلاقته بتأسيس فهم للتربية الجنسية بحيث لا نتجمد على الماضي ولا نتنكر له، فالمسألة تتعلق بضرورة القراءة الناقدة والمنفتحة لكتبنا التاريخية المتعلقة بالثقافة الجنسية بهدف عصرنة تلك التجربة وتوظيفها بما يخدم أجيالنا ومجتمعنا.

والنقطة الهامة هي أن ثقافتنا الإسلامية تختزن كماً هائلاً من التوجيهات والتعليمات الأخلاقية المتعلقة بالجنس يؤهلها إلى صياغة مشروع متميز في حقل التربية الجنسية وقد يكون من الضروري إزاحة اللبس عند البعض بين "التربية كفن وكمنهج علمي، وبين التوجيهات الأخلاقية العامة".

بين التربية كفن والأخلاق كقيمة:

التربية عبارة عن فن وطرائق أو مجموعة وسائل تسعى إلى التنمية والبناء للوصول إلى هدف ما، وهذا الهدف قد يكون نبيلاً أو أخلاقياً وقد لا يكون، فيمكننا أن نقول بتربية الحيوان، فالكلب يربى ليخدم صاحبه أو يربى ليكون حارساً للماشية من خطر الذئب أو لحراسة البيت، فكل هذه الأمور تربية، فالجيوش التي تشكلها أغلب الدول الاستعمارية وترتكب الجرائم بحق الشعوب الأخرى تربية أيضاً!؟ فمفهوم الأخلاق يعني القداسة فلا يمكننا أن نستخدم كلمة الأخلاق مع الحيوانات، فقد يتخصص إنسان في تربية الخيول، لكن لا نستطيع القول أنه يعلمهم الأخلاق، وتأسيساً على ذلك نقول: أنه يمكننا الإفادة من التجارب العالمية، وتأطيرها ضمن ضوابط الأخلاق الإسلامية، والمدرسة هي إحدى الأماكن المؤهلة لإعطاء الأطفال المعلومات الجنسية المنظمة من قبل أهل الاختصاص (أهل التربية وعلماء الدين) أو بتعبير القرآن ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[1]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[2] كما أن التكامل أمر مطلوب بين المدرسة والأسرة وأجهزة الإعلام.

تلاقح التجربة البشرية:

والقضية الثالثة: تتعلق بتجربة الغرب، فقد يظن البعض بأن مسألة التثقيف الجنسي مسألة جديدة جاءت مع عصر العولمة، إلا أن المتتبع يعلم بأن الكثير من هذه البرامج قد بدأت منذ خمسين سنة أو تزيد في الولايات

---

[1] سورة الفرقان، الآية 59.

[2] سورة فاطر، الآية 14.

المتحدة الأمريكية وأوروبا وإن لم تكن تدرس على نطاق البلد كله، وقد كانت هناك فترات يعاد فيها النظر في (برامج التربية الجنسية) وفترات يهمل أمرها بسبب عدم اكتمال المنهج، أو لعدم وجود مدرسين أكفاء، أو بسبب حملة من رجال الكنيسة، ورجال التربية وعلم النفس ممن يتحفظ على مناهج التربية الجنسية، وإذا كان في مجتمعنا من يعترض على التربية الجنسية، فالغرب قد مرّ بتجارب قاسية ومتطرفة أيضاً في هذا الخصوص كما هو الحال عند الكثير من الشعوب.

ومن أطرف ما قرأنا في تاريخ حركة الأدب الجنسي أن كتاب الشيخ الجليل النفزاوي "الروض العاطر في نزهة الخاطر" قد أحرق في أوروبا إبان صعود النازية إلى الحكم حيث أنه ترجم (عام 1905م) إلى الألمانية ثم تمت محاكمته وإدانته بتهمة الإباحية!! (علماً بأن الكتاب صدر في النصف الأول من القرن الثامن الهجري)!؟ واستمرت التجربة في الغرب حتى صدور كتاب "كنزي" في جزأين (السلوك الجنسي للمرأة) وقد حلم "كنزي" بجمع (100) ألف قصة جنسية وقد تمكن من إجراء (19) ألف مقابلة، وقد تحدث في كتابه بشكل مباشر حول الثقافة الجنسية وبشكل علمي، وقد أعقب صدور ذلك الكتاب حملة معاكسة عند الناس طالبوا فيه حكوماتهم بتقنين وتعليم الثقافة الجنسية، وتحت عنوان تكامل التجربة البشرية أو تلاقح تجارب مختلفة قد نتفهم طلب بعض المؤسسات العالمية والتي لا تزال تلح على تصور لمنهج إسلامي يتعلق بالتربية الجنسية من خلال منظمة الصحة العالمية وفروع جمعية تنظيم الأسرة وغيرها من الهيئات والمنظمات التي تستغيث لمعرفة نجاح تجارب بعض الشعوب، وكأن هذه

المؤسسات تُقر بأن العالم العربي والإسلامي يمتلك بعض مصادر القوة وما يزال يمسك بالكوابح والضوابط الناظمة التي منعت إلى حد ما عادة الجرب الجنسي المتفشي في تلك المجتمعات، وقد يكون مريحاً نفسياً لبعض القرّاء أن نوغل في نقد الغرب ونقوم بالسباب والتشهير بمشروعاتهم على غرار ما يدور بين الباعة على رصيف الشوارع، عوضاً عن التفكير في الدروس المستفادة من تلك التجارب والبرامج! والحق أننا معنيون بتسليط الضوء أولاً وقبل كل شيء على مضمون التراث العربي والإسلامي والذي يشكل الركيزة الأولى لأي مشروع تربوي قادم.

الاحتماء بالضحك

يعيش الإنسان العربي اليوم واقعاً مريراً مليئاً بالأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ذلك الواقع دفع الناس إلى صناعة وابتكار آليات للتخلص من قسوة الحياة، فكان شيوع روح النكتة والفكاهة الاجتماعية وسيلة تلجأ لها جميع الشعوب المغلوبة على أمرها، لكن قبل ذلك كله يمكن اعتبار (روح الدعابة) في الإنسان دليلاً على صفاء ولطافة الحس وحيوية الفكر ويعزز ذلك قول الإمام علي: "من كانت به دعابة فقد برء من الكبر" وفي الأمة تعتبر عنواناً للتحضر ورقة في الطبع وغزارة في التراث.

الفكاهة نزهة النفس وربيع القلوب:

عرف العرَب الفكاهة كبقية الأمم الأخرى وتعمقت التجربة بعد فتح العراق وفارس والشام حيث تداخلت تجربتهم الإنسانية برصيد تلك الشعوب وما تختزنه حياتها الاجتماعية والثقافية مما أفرز اهتمامات جديدة بألوان الفكاهة والترويح المختلفة فانتشرت مجالس القصص والحكايات والهزل والنوادر.

وتطور الفكاهة في التراث العربي هو بالتأكيد امتداد لتجربة الإنسان الأول حيث كان "المزاح البدني" أسبق من "النكتة اللفظية" (فالإنسان

البدائي كان يصنع فخاخاً وأحابيل لأصحابه - أنصاف القرود - فيثير هياجاً من الضحك - غير النظامي - وربما تسلل وراء صاحبه البليد غفلة فيصفعه ويهرب مرحاً أو يلقي عليه الماء من مكان خفي ليبلل عريه أو غطاء عورته الجلدي أو يرمي عليه ثمرة من فوق شجرة يختبئ بين أغصانها ولا مانع من أن تكون ثمرة جوزة الهند! فيموت صاحبه ويموت هو من الضحك!).

وقد ظهر في التراث العربي كثير من الشخصيات الفكاهية يعرفها أغلبنا مثل (أشعب - أبو دلامة - أبو العبر) أما شخصية جحا، ومن خلال مطالعة بعض الأدبيات الفكاهية فيمكن أن نعتبرها شخصية ما فوق قومية؛ بسبب تنازع الفرس- العرب - الترك - الكرد على جذوره القومية إلا أنه بهذا القدر أو ذاك يعتبر جزءاً من هذه القومية لأن كل الشعوب أضافت لهذا المشترك (الفكاهي). ويقسم أهل اختصاص الأدب العربي الكتابات الفكاهية إلى نمطين: فريق من الكتّاب عرض للفكاهة في ثنايا كتبه كما فعل الجاحظ في كتاب (البخلاء) وفريق آخر من الكتّاب أفردوا الفكاهة بكتب خاصة منهم: أبو الطيب الوشّاء في كتابه (الموشى أو الظرف والظرفاء) وكذلك أبو منصور الثعالبي في كتابه (لطائف اللطف) ومن بين صور الفكاهة عند العرب أن أبا العبر العباسي سأله مرة ثعلب العالم النحوي المشهور: الظبي معرفة أو نكرة؟ فأجابه: إن كان مشوياً على المائدة فمعرفة وإن كان في الصحراء فهو نكرة! فقال له ثعلب: ما في الدنيا أعرف منك بالنحو!

الثقافة المتجهمة:

يعتقد بعض الباحثين أن الدين الإسلامي حدّ من تطور النكتة

وحجم روح الدعابة من خلال بعض الأحاديث (كثرة الضحك تميت القلب) ورسم حدوداً للضحك (ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلّا تبسماً)! وأن النكتة لم تتطور إلا بعد الفتوحات واختلاط الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى!

القراءات المبتورة للتراث قد تتجاهل قول الرسول ﷺ: "روحوا القلوب ساعة بعد ساعة؛ فإن القلوب إذا كلت عميت". وقول الإمام علي: "أجموا هذه القلوب والتمسوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان". وإذا مدحت العرب رجلاً قالوا هو ضحوك السن بسام الهشات عمش إلى الضيف، وإذا ذمته قالت: هو عبوس الوجه، جهم المحيا، كريه المنظر حامض الوجنة، كأنما وجهه بالخل منضوح، وكأنما أسقط خيشومه بالخردل!

بل تنبه المربون العرب المسلمون إلى (مسألة تربوية هامة) تتصل بضرورة إبقاء الدرس نشيطاً، فدعوا إلى إزالة السأم بالنوادر والحكايات؛ كي تبقى النفوس مهيأة لتقبل وتلقي العلم وفي هذا جاء في الأثر أن النبي ﷺ كان يحدث أصحابه عن أمر الآخرة فإذا رآهم كسلوا أخذ بهم في أحاديث الدنيا وكأن (الفكاهة حبوب تصطاد بها القلوب ... وهي نثار الدر).

المرح الشافي:

تذهب العديد من الدراسات الحديثة إلى أن (الضحك) يقوي جهاز المناعة بنسبة 40%، ويفسر تلك النتيجة الباحث (نورمان كوزينز) في كتابه

(بيولوجيا الأمل) قائلاً: إن الضحك ينشط إفراز مادة الإندروفين من المخ وهذه المادة تعمل على خفض شعور الإنسان بالألم سواء النفسي أو الجسمي. وقد سبق (نورمان) بالإشارة إلى هذه الظاهرة الكاتب (أحمد أمين) في الأربعينيات من القرن الميلادي الماضي بما يشبه الوصفة العلاجية: لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في الصيدليات بالضحك؛ فضحكة واحدة خير من ألف حبة (أسبرين) أو(بندول) أو ما شئت من الأسماء عجمية وعربية؛ وذلك لأن الضحك علاج الطبيعة بينما الأسبرين وما إليه علاج الإنسان، والطبيعة أمهر علاجاً وأصدق نظراً وأكثر حنكة من بني البشر، بل إن (الفكاهة) استخدمت ليس كعلاج (نفسي جسدي)، بل كعلاج (سياسي اجتماعي) أيضاً، فقد قامت مجموعة من المسلمين الأمريكيين بقيادة شاب يطلق على نفسه اسم الداعية (موسى) بتنفيذ برنامج (الله خلقني مضحكاً) للتعريف بالثقافة الإسلامية والعربية بطريقة فكاهية حيث قدمت الفرقة عروضها الكوميدية في واشنطن بهدف ردم الهوة بين فئات المجتمع الأمريكي خصوصاً بعد أحداث (الحادي عشر من سبتمبر) بهدف تعديل وتصحيح تلك الأحكام المطلقة التي تواجه المسلمين أي (بالضحك وليس بالمواجهة الحادة).

على مقدار عمق الكبت تكون الضحكة:

في السنوات الأخيرة اهتم العديد من علماء النفس بالأبعاد السيكولوجية للفكاهة والضحك، وكذلك فعل بعض نقاد الأدب، وقد شهدت مدينة (بال) السويسرية في عام 1997م أول مؤتمر عالمي مخصص

(للفكاهة والعلاج النفسي) والشيء الجميل في الفكاهة والضحك أنه لا يمكن احتسابها (كظاهرة) على حقل معرفي واحد أو تخصص بعينه وذلك لأنها تتقاطع مع حقول معرفية متنوعة كالفلسفة والسينما والمسرح والفن التشكيلي والنقد الأدبي ...إلخ.

لكن بشكل عام يمكننا القول: إن النكات والأساطير تعتبر مرايا الشعوب، وهي أقصر الطرق لمعرفة حجم معاناة وتطلعات وهموم المجتمعات الإنسانية. والنكتة تحديداً تعتبر صحافة لا تخضع للرقابة السياسية والدينية والاجتماعية فهي تنتشر وتنتقل من بيت إلى بيت ومن مقهى إلى مقهى دون قيود. فالمجتمعات التي تعاني من كبت ديني تكثر بها النكات على رجال الدين، والمجتمعات التي تعاني من كبت اجتماعي تكثر بها نكات الجنس، وفي المجتمعات التي تعاني من كبت سياسي تكثر بها النكات على القادة السياسيين. وقد نقل أن الرئيس جمال عبد الناصر كان يرغب في سماع ما يقال عنه وعن نظام حكمه فكلف من يجمع له هذه النكات.

في الوطن العربي وبعد الهزائم العربية السابقة والمتكررة برز ما يعرف بـ(أدب النكسة)، لكن بعد السقوط المفاجئ لبغداد على يد قوات الاحتلال الأمريكي لجأت الشعوب العربية للنكتة السياسية باعتبار (التهكم - نقصد - الكي آخر العلاج) حيث طال القسم الأكبر منها وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف! هذا الازدهار للنكتة والسخرية يعتبر رد فعل طبيعي للشعب خصوصاً عندما يجد نفسه محاصراً بالأكاذيب الإعلامية، ومن بين تلك النكات التي شاع تداولها على شكل رسائل في التليفونات المحمولة

والرسائل الإلكترونية: أن عربياً بحث عن معنى (العلوج) في معجم مختار الصحاح فلم يجدها فأشار عليه صديقه بالبحث عنها في مختار الصحاف! وتقول نكتة أخرى أنهم سألوا الصحاف بعد القبض عليه عن معنى (علوج) فأجاب: تعني العفو عند المقدرة!

المناصب بالمراوغة أم بالكفاءة؟

هناك لحظات مناقبية ومواقف نبيلة لا يحجبها الزمان ولا تتحجم في دائرة وحدود أمة من الأمم فقد تجلى من بعيد ومن أعماق الزمن الغابر ذلك الموقف الجميل الذي يفسر لنا شيئاً من المراوغة في تقلد المناصب حين كان الفيلسوف (ديوجين) يغسل العدس لكي يسد جوعه!! فرآه أثناء ذلك زميله الفيلسوف (أريستيبوس) الذي توصل إلى مقدار من حياة الترف والراحة بفضل تودده وتملقه (أصحاب الجاه)، فقال الفيلسوف (أريستيبوس) لزميله بسخرية: لو أنك تتعلم كيف (تتملق) أولئك لما كان عليك أن تعيش على غذاء تافه مثل العدس!! فأجابه (ديوجين) باستصغار وازدراء: ولو أنك تعلمت أن تعيش على غذاء مثل العدس لما احتجت قط إلى تملقهم وبيع كرامتك!!

حب المناصب:

تقلد المناصب تارة يكون وسيلة للعطاء وخدمة الوطن والمجتمع وتارة أخرى يكون بمثابة حب للوجاهة وتضخم في الذات فـ(حب المناصب) كظاهرة سلوكية لها أبعاد متعددة وصور متفاوتة؛ وعليه لا يجب أن نندهش إذا شاهدنا في الانتخابات أن (بعض) الشخصيات ذهبت

لترشيح نفسها وهي من الذوات المغمورة الهامشية التي ليس لها صلة بخدمة الضعفاء والفقراء من الناس ولا تعلم بحاجات المجتمع، فضلاً عن عدم أهليتها وكفاءتها! كما أن هناك شخصيات ذات قدرات عالية تحتجب تواضعاً وتعففاً وتتوارى عن الأنظار لكي تمارس دورها الإنساني والوطني خلف الكواليس!! ونقول: لا تثريب على أمثال هؤلاء أن يتقدموا فالمجتمع والوطن بحاجة ماسة لعطائهم.

وتقلد المناصب من المسائل التي تحتمل وجهتي نظر وكل منها تبدو عقلانية ومنطقية، وليس أدل من الماء مثالاً على مسألة وجود احتمالين في التعليل والنتيجة فقد شبه العرب اصطناع المعروف إلى الكرام واللئام بماء المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤاً وتشرب منه الأفاعي فيعقب سماً! والجاحظ جسّد لنا أحد الأمثلة الواضحة على إشكالية الاحتمالين عندما دافع عن (الكذب) وقال إن الناس يظلمونه بتناسي مناقبه وتذكر مثالبه، ويحابون الصدق بتذكر منافعه وتناسي مضاره. ولو كان الجاحظ من الأحياء لتسابقت إليه الشركات التجارية هذه الأيام لكي تبرم معه عقوداً ليس بهدف الترويج لفكرة (الكذب الأبيض) بل للمشاركة في الحملات الانتخابية وتلميع المرشحين.

الانتهازية المعاصرة:

تنتشر هذه الأيام موجة جديدة مشجعة لإحياء هذا (الفن) سلوك (المراوغة) على حساب الكفاءة، ونطالع في ذلك الدراسة التي قام بها الباحث (رون ديليوج) أستاذ علم النفس والذي يؤكد فيه نجاح هذا الأسلوب وعلى الأخص في حالة الأداء الوظيفي الضعيف، ويذهب

الباحث (رديك مارلو) والذي علق على هذه الظاهرة ووصفها بأنها تاريخية ومستمرة حيث يذكر أنه قد شاع في الحرب العالمية الثانية مصطلح يصف شريحة المراوغين (أصحاب الأنوف البنية)، فكان (التملق) ظاهرة في المؤسسات العسكرية خصوصاً بين الضباط ذوي الرتب العليا وضباط الصف، ويضيف أن المنظمات الإدارية الأمريكية تنتشر فيها مصطلحات مشابهة مثل (لاعقو الأحذية) ومصطلح (مقشرو التفاح) وجميع هذه التعبيرات هي لغة متداولة لفئة من الموظفين الذين يعتقدون بأن العمل بصورة فاعلة لا يكفي، بل أن الفرد بحاجة إلى مهارة (لعق الأحذية) حتى يقتنص الترقيات والعلاوات ويفوز في الانتخابات.

الثقافة الانتخابية:

عندما يكون هناك وعي انتخابي سوف يكون من السهل على المواطن الاختيار بين المتنافسين، خصوصاً عندما يصر المواطن الواعي على وجود برنامج انتخابي يطرحه كل مرشح بحيث يدرك الفرق عندما تتقارب البرامج وتعابيرها اللفظية؛ ومن ثم يمنح صوته الانتخابي الثمين بعد أن يسأل نفسه بعض الأسئلة: لماذا يعطي ثقته لبعض المرشحين؟ ولماذا يرفض البقية وبأي معيار؟ وهل اختياره يجعله يهرب من تأثير ضغوط عديدة أخرى، كالأصدقاء وتبعات الحملة الانتخابية؟ وهل حكم ضميره وشعوره الوطني؟ وهل كلف نفسه قراءة البرنامج الانتخابي؟ وهل يعي أن مشاركة المسجلين في الانتخابات هي أحد المعايير الأساسية التي تتحكم في قياس مدى المشاركة الشعبية؟

نعم هناك نتائج إيجابية بعيدة المدى للمشاركة وهي تتقاطع مع القيم

التي بشر بها الرسول ﷺ عندما دعا إلى (كلمة سواء) في أن لا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً!! تلك القيم هي التي أوصلت البشرية إلى الممارسات الديمقراطية المعاصرة أي أن يكون للناس نفس الحقوق والواجبات في مجتمع أفقي! فالمشاركة هيّأت لنا تاريخياً وتراكمياً أن نشاهد الرئيس الأمريكي (كلينتون) وهو يساق إلى محكمة التأديب أمام شاشات التلفزيون التي رآها مليارات من البشر!! كما يمكننا أيضاً أن نستنتج معادلة بسيطة في اختيار الأشخاص (المرشحين) حددها القرآن الكريم سلفاً في صفتين اثنتين: (الكفاءة + الإخلاص) ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1].

وحتى لا نرهق ذهن القارئ نختم بتذكير ودي وطريف: وهو أن لا ننسى أن هناك من يملك المال دون الكفاءة وهناك من يملك حملة انتخابية متميزة (ماكياج إعلامي) فقط! وهناك من يدير القرص لصالحه كما فعل (برنارد شو) فقد كان (برنارد شو) في إحدى القرى يلقي خطاباً انتخابياً يؤيد فيه حزب العمال وقد ختم خطابه بقوله: هل هناك من أحد بعد كل هذا يعترض على تفوق وأفضلية حزب العمال على حزب المحافظين؟ وفي تلك اللحظة نهق حمار فضحك الحاضرون لكن (برنارد شو) استغل الفرصة وصاح في الجمهور: هل رأيتم لقد تأكد للجميع أنه لن يعترض على ذلك إلا حمار!

---

[1] سورة القصص، الآية 26.

المحتويات

فضل السكوت ولزوم البيوت

أوراق جريئة لتفعيل المجتمع

إن كتاب (فضل السكوت ولزوم البيوت) يشكل صرخة تستنهض الإنسان العربي وترفض صمته أو انعزاله مذكرة إياه بمخزونه من التراث الأخلاقي، الذي يبعده عن الانكفاء على الذات، ويحثه على الحركة والعطاء.

إنها أوراق جريئة يحشد فيها الدكتور المدرب والمستشار السلوكي منصور القطري العديد من مواقف التاريخ الإنساني والتجارب العالمية في محاولة منه لتجاوز الروح الانهزامية، وتنبيه الإنسان العربي إلى دوره المؤثر في أسرته ومجتمعه وفي الفعل الإنساني بشكل عام.

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة
سورية - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا
هاتف: 00963115637060
فاكس: 00963115632860
aklpublishing@gmail.com

ISBN 978-9933-567-06-4
